طوقا من مسد

رواية

مصطفى البلكي

fb/mashro3pdf

طـــوق من مســـد

رواية

مصطفى البلكى

لوجو
الهيئة المربع

fb/mashro3pdf

سلسلة
إبداعات

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• طوق من مسد
• مصطفى البلكى
• الطبعة الأولى،
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
224ص - ٥ر١٣ × ٥ر١٩سم
• تصميم الغلاف، فكرى يونس
• المراجعة اللغوية، سعيد حامد شحاتة
• رقم الإيداع، ١٠٢٢٥/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى، 978-977-704-095-2
• المراسلات،
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى، ١٦ أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت، ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى، ١٨٠)

• الطباعة والتنفيذ،
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت، 23904096

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة أو بالإشارة إلى المصدر.

282

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداعات الشباب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
فؤاد قنديل
مدير التحرير
محمود الحلوانى
سكرتير التحرير
مدحت العيسوى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

طوق من مسد

fb/mashro3pdf

(١)

ربما الابتسامة التى تغازل شفتى زهيرة غصبًا، تقول لعلى إنه لم يكن على صواب حينما جاء بها إلى هنا، فها هى تُسقط- ولو مؤقتًا- كل الأوراق الجافة التى كانت تغطى تقاطيعها، وتحول دون إفصاح الوجه عن كنوزه التى فُتحت له ذات يوم..

تلك الانفراجة عرف أنها حقيقية لا زيف فيها، فى تلك اللحظة التى سمحت لامرأة من حريم المكان أن تأخذ الطفلين إلى كوخها.. زهيرة اكتفت بالنظر إليه، كأنها تأخذ إذنه، فما كان منه إلا أن هز رأسه وابتسم..

وراحت تراقب المرأة وهى تحمل الطفلين إلى كوخ من الأكواخ المتلاصقة، التى لا يفصل بينها إلا محيط دائرى يملأ بالماء، لقنص الزواحف مثل العقارب وحية الدفان، أمامها تمتد أرض الكلأ،

fb/mashro3pdf

الفقيرة فى نبتها، والذى لا يخرج عن البرسيم المنمق بنبات القريللا التى تنضج الآن فى طست كبير، تأكل النار قعره.

حول الكانون تلتف كوكبة من قاطنى الأكواخ، جاعلين فى صدارة المجلس على، و زهيرة ، و جاد الذى عرف أنه لا يمت بأى صلة لسكان الأكواخ..

العيون كلها تتابع يد العجوز المنهمكة فى تقليب القريللا.«١» التى بدأت تغلى، ليرتفع ريمها الأخضر محملاً برائحة حريفة، ناتجة من إضافة الدقة ..

يغادر جاد المجلس، يدخل أحد الأكواخ، وتحت الضوء الواهن يعود بقعب فى يده، تغطيه قطعة قماش نظيفة، يناوله لعلى الذى يزيح الغطاء، فتفرج شفتاه عن ابتسامة محدودة لرؤيته منقوع أبى النوم ويرده إليه قائلا: ليس الليلة.. إزاء الرفض يرفع جاد القعب إلى فمه، ويبدأ فى ارتشاف ما به، يتركه على و يحوّل عينيه إلى العجوز، التى بدأت فى إخراج العشب المطبوخ، لتضعه فى طست آخر..

يركن جاد القعب بعد أن أجهز على ما به، وتخرج منه ضحكة ممطوطة، لا توقفها إلا العجوز التى تقول: ياما ضحك الكبار ماسخ..

لا يظهر على سحنة جاد أى علامة من علامات الغضب أو الكره تجاه العجوز التى راحت تأخذ العشب الناضج، وبيدها تعصره وتحوله إلى كور صغيرة، تظل تضغط عليها فى سجن راحتها، ولا

(١) القريللا: نبات زهرى يتم طبخه يطلع مع نبات البرسيم .

fb/mashro3pdf

تحررها إلا بعد أن تنز آخر قطرة ماء تسكن جوفها.. وهى تردد:

- هذا أفضل من لا شيء.. حكم الأيام. ...

تمصمص النسوة الشفاه المحروقة، وتتولى إحداهن الرد على العجوز:

- وهل هذه أيام؟، لا سمعنا عنها ولا شفناها قبل سابق.

ويحل صمت شفيف على القعدة. .

مع طول اللحظات المسكونة بالصمت والمراقبة لما تفعله العجوز، يولد فى عينى جاد حزن بيّن، يغتال تلك اللحظات التى أعقبت ارتشافه المنقوع، يلحظ على شوشة الحالة التى تلبست وجه جاد، لكنه يغض الطرف تحت إلحاح يد العجوز الممدودة بكرة خضراء تنفث بخاراً، تلتقطه الأنوف، فتتلمظ الأفواه..

يضغط الكرة بأصابع يده على خبز «الدبدوب الأبيض» المعمول من دقيق القمح، وتمد يدها بأخرى لجاد، الذى يرفضها قائلاً: إن نفسه «مسدودة» ولا حاجة له فى الأكل، العجوز من جانبها تتجاوزه وكأنها تقول: «من يأكل على ضرسه ينفع نفسه».

ولأن العقول تتوه إذا انساقت البطون وراء سد صرخاتها فقد أقبل الحضور على العُصيرة بنهم وشوق، يفوق إقبالهم على الثريد وقطع اللحم التى لا تدخل الأكواخ إلا كل شهرين.

زهيرة تسأل نفسها عن جدوى الصبر الذى يتلبسهم، ويجعلهم يقنعون بتلك الحياة التى نفرت منها، فقررت ذات ليلة بعيدة العودة إلى العمار والونس الذى غادروه تحت ثقل المغارم. .قالت يومها:

fb/mashro3pdf

- سأعود حتى لا أنسى..

صحيح لم يتوفر لها البيت ولا الجدران الكافية التى تمنح حماية ما، قد لا تكون كافية لكن قربها من منابت الصبا يعنى لها الكثير، هى تعرف أنها من طينة مختلفة، ولِمَ لا؟ وهى دائمة القول:

- أنا نبت البراح، وبذرة وضعت بجوار نبع الحياة..

خرجت من رحم أمها على شاطئ بحر النيل فى أرض السواقى، فتنفست هواءً منعشًا دخل صدرها بينما كانت روح أمها تصعد، فما كان من عطية النجار ابن القرارية إلا أن تلقفها وحملها لبيته، فتلقتها زوجته دميانة برحابة صدر، وقبل أن تسأل عن فصلها وأصلها، ألقمتها ثديها، أخذته منها ولم تجفل، وبعد أن شبعت أسلمت نفسها لنوم هادئ قل أن يزور الوليد فى يومه الأول.. استدارت دميانة وواجهت عطية لتسأله بروح الأنثى: من أين..؟

حق لعطية أن يُطَمْئِنَ قلبها الواجف من الأيام وتقلباتها ويذكرها بكلام الرب وبوجوده المعضد لقلب عبده الواثق فى كرمه، سمعت وخفضت ريشها، و قالت لعطية:

- اختر لها اسمًا..

قال: فلتكن زهيرة....

هكذا كانت الحياة معها منذ اللحظة الأولى، حددت لها معالم الطريق، فانطلقت تنعم بالعيش فى كنف عطية وزوجته، حتى خرطها خرّاط البنات، فجاءت الأيدى الناشفة وقالت: لحمنا ونحن أحق به من الغريب..

fb/mashro3pdf

فى العراء حول الأكواخ الضعيفة، كم بلعت من رمال الجبل، وكم عانت من وجع العيون من أثر الرمال التى كانت تسفح وجهها..

قالت لعلى ذات يوم إن القسوة علمتهم كيف يواجهون الحياة بالحيل، يستعينون بها على المعايش وقهر بعضهم البعض!! أما للنزول إلى ملاعب الصبا، فلا، دائما سوط الجلاد وسيفه، حوائط سد تحول دون ما يريدون..

تستقر عيناها على سحنة على شوشة، فتعرف أن القلق مازال يخايل ذاكرته، يجعله على غير العادة، لا يقبل على ما تقدمه العجوز له، وهذا لا يتفق مع طباعه المعروفة لديها، خصوصاً الأكل الذى يقبل عليه بنهم من يأكل فى آخر زاده، لأنه من معتنقى المبدأ القائل «عض قلبى ولا تعض رغيفى».

تركن خدها على راحة يدها وتفكر..

(تغيرت يا على، خمدت بداخلك جذوة التمرد، تلك الجذوة التى جعلتك قريباً من قلبى، كم كنت رائعًا يا ملاعب الثعابين، أيها الثورى الراحل خلف أفكارك، أين هى يا على؟، ضاعت وتلاشت، عندما امتلكت جسدى، واستطعت أن تنبت منه طفلين، هل هما السبب فى تلك الحالة التى تعيش فيها؟، فصرت رجلاً كل همه وُضع فى كيفية تدبير لقمة العيش للبزارى ولىّ، لو استطعت أن أقول لك، لقلت كم هى مريرة تلك اللقمة، وأنت تمضى تجوب الدروب المسكونة بأولاد الناس، تبيع لهم ما ينفعهم، وما يجعلهم

fb/mashro3pdf

يستميتون في الدروب والبيوت التي شهدت أحلى أيام الصبا.. قد تقول إن الوقت غير مناسب للهبة التي تعيد كل شيء، قولك الذي صرت ترددده، كلما جاءت سيرة الملاعين أو كلما ارتكبوا حماقة، تضاف إلى حماقاتهم..

الجدال أصبح لا يؤتي ثماره، ضرره أكثر من نفعه، حتى حضورنا إلى هنا لم يخطر ببالك إلا بعد أن أيقنت بقرب الخطر من الطفلين..)

بعد أن أخذ جولته الصباحية، عاد، فأسقط الخرج من فوق كتفه، و رمى بجسده بجوار الجدار، وأطلق عينيه في البراح القصير من بساط أخضر، وقف عند الحد الفاصل بين الأرض البور وأرض السلايح (١).. وقال: لا بد من الرحيل..

علم أن أمنيته لكي تتحقق يلزمها المؤازرة من زهيرة المنهمكة خلف الدار في تقليب الغلة المغسولة والمنشَّرة تحت الشمس، والتي لم تكلمه كلمة واحدة منذ حضوره، وهذا بالطبع يخالف ناموسها.. ولأنه يعرف أن عقلها قدّ من حجر صوان، وليس من السهولة عليه إقناعها لترك المكان والرحيل إلى الأكواخ، من أجل ذلك راح يبحث عن مدخل، يكون بعيداً عن الفردة التي عرف بأمرها من ذلة لسان عبد الحفيظ السكي «الجزار»، حينما وقع أمامه وقال:

- من الأسبوع القادم عليّ أن أزيد كمية اللحمة..

هز رأسه ولم ينبس بكلمة، وقلب على الخبر ماجور، وفي طريق

(١) أرض تصلح للزراعة.

fb/mashro3pdf

العودة مال على عطية النجار بأرض السواقى، لمح حوله عدداً هائلاً من الخوابير والخوازيق، سأله عنها قال إنها طلبت منه ولا يعرف سببها، لكنه عاد وقال وهو يشير إلى الغليون الرابض عند الموردة، والذى كان يُحمَّل بالغلال فى طريقه إلى رملة بولاق:

- ربما سوف يأتى الدور على كل هذا، ويحمل إلى المحروسة.

- ربما.

قالها ونفّض جلبابه، يريد الرحيل، فشده من ذيله وسأله:

- كيف أخبار زهيرة..؟

- فى أحسن حال.

- والعيال..؟

- يقبلون يديك.

انطلق يشق أرض السلايح مبتعداً، فى وسطها وفى حفرة عميقة، وجد الذل: لا تستر جسده إلا خرق بالية، هم بإيقاظه، لكنه عدل عن الفكرة، فتخطاه وسار، إلا أن صوت الذل الأجش لاحقه، وطالبه بالوقوف..

عاد إليه بوجه باش رغم الهم الساكن فيه، وبدأ بإدخال يده فى الجراب ليخرج له بلحًا، فما كان من الذل إلا أن أسكنها بإشارة من يده بطريقة تدل على عدم رغبته فى أى شىء، وقذفه بالجملة التى جعلته يرتجف خوفًا، ويحث الخطى ليقصر المسافة بينه وبين البيت وهو مبعثر خلف الجملة، يسأل نفسه عن مقصده عندما قال:

- ربنا يحرس لك الطفلين.

fb/mashro3pdf

لأنه يعرفه معرفة وثيقة، ويعرف كلماته التى دائمًا تُحمل بالكثير من المعانى، هو غير كل الناس الذين لا يعرفونه، دائمًا -هو- فى عقولهم: الذل الذى أصابه مس من الجن. .أما هو فيؤمن بأن الناس لو وقفوا أمام ما يلفظه لعرفوا أنه سيد العاقلين.. لكن كيف وهم لا يعطون عقولهم الفرصة؟، فهو أمام عينيه اعترض طريق الشيخ سيد كتكوت رئيس العدول، تفحصه وهو فوق بغلته والعمامة الكبيرة تروح وتجىء على رأسه الشبيه برأس أبى فصادة، الشيخ سيد من جانبه جرت عيناه على جسد الذل النحيل المستقر أعلاه قحف* ممزق، وقفًا صبغته الشمس فاسمر، وأسفله يسير على قدمين نالهما الكثير من التقشف، خاليتين من الوطأ.(١)

وبعين رأسه رآه وهو يمسك بلجام البغلة ويقيدها ويصرخ فى الشيخ سيد المأخوذ:

- يا شيخ السوء، ألا تعرف أن الصوفى من إذا نطق أظهر الحقائق وإن سكت نطقت الجوارح بقطع العلائق؟.

الكلمات أربكت الرجل، جعلته فى حيص بيص وهمَّ بالنزول إلا أن الذل تقدم منه ومنعه وجعله معتقلاً فوق دابته، وارتفع صوته:

- أنت بوق للكاشف، أحللت المغارم والمكوس على أصحاب القحوف، ورفعتها فى المواسم عن بنات الخطأ والخواطى (٢).

قاطعه صاحب الجبة والعباءة قائلاً باستعطاف:

---

(١) الوطأ: الحذاء.

(٢) النساء اللاتى يعملن فى البغاء.

fb/mashro3pdf

– لا تنس أنى فقيه البلد ورئيس العدول ومغسل موتاها ومعلم أولادها فى الزاوية الكاشفية. .

رفع صاحب الهلاهيل يده القابضة على العصا وقال وهو يُلَسْوع البغلة على مؤخرتها :

– اعلم أن الغنى ليس من ضرب السكين، ولكن الغنى من أطعم المسكين يا ابن بائعة الجلّة. .

قالها واختفى، كأنه فص ملح ذاب. .لم يجد الناس إلا تطويق الشيخ سيد فى محاولة لإدخال الهدوء إلى نفسه الذى فض الموقف قائلاً :

– ليس على المريض حرج.

غادر الشيخ المكان، فوقف على ينظر إليه وهو يدك جنبى الدابة لتركض به، وكالبرق الخاطف، لمعت أمام عينيه المقولة التى يحفظها :

فقيه ريف يقول : إنى برعت فى العلم والرواية فقلت لا شىء أنت عندى تصلح للدرس والدراية .

يغيب طيف الذل، فيغمض «على» عينيه، ويهز رأسه ويردد :

.– هكذا الذل الذى يثير بوجوده الكثير من الأمور بكلامه الذى لا يستطيع أعقل العقلاء التفوّه به. . . .

ذلك الموقف، جعله يوقن أن البلد مقبلة على أيام أحلك من قعور الأوانى، استقر ما توصل إليه، وثبت بداخله، فسمع لقلبه دقات كدقات طبول كان يراها طفلاً صغيراً يتسكع فى الحوارى والأزقة لحظة خروج الموكب السلطانى، حينما يدفع الخوف السابلة إلى إفساح الطرقات، وإغلاق الحوانيت، والفرار أحيانا والتخفى خلف

fb/mashro3pdf

الأبواب والبواكى المتخللة الوكالات . .

فى يوم مثل هذا لم تسعفه قدماه فى الفرار فطالته يدان قويتان من فوق الأرض، ليستقر على ظهر الفرس، ويمرق به عبر الحوارى وصرخاته تصل إلى الأذان التى كان أصحابها ينظرون، فلم يتحركوا، فقط قالوا:

- يا حسرة أمك عليك.

هو لا يريد الحسرة مرة أخرى، لذلك قرر الرحيل، لأنه يعرف عيون أولاد الناس وخبرتهم فى الأطفال، فأصحاب الأجساد السمينة لهم فى قصور الأسياد فوائد لا تحصى، فإذا لم يحسن السلب والنهب، فهو من الخصى، يدرب على تدليك أجساد الجوارى والمحظيات. .

تلك الفكرة جعلته يهز رأسه، يطرد الأفكار التى تصر فى العودة، تذكره بأن التاريخ قد يعيد نفسه. .

ياه. . يقولها و يحدث نفسه:

هل يكتب لهما ما مر بى. .؟، ما أصعبه من زمن قل فيه الرزق، وانتشر فيه الوباء والغلاء وأصبحت بطون قليلة تشكو من التخمة، وأغلبية تشد الحزام تترقب جيفة لتأكلها، أو حزمة من القريللا لتنضجها، ما أغربها من أيام. !!. لكن الأيام يا على هى نفسها الأيام لم يحدث بها أى تغيير منذ تلك اللحظة التى استطعت فيها الفكاك من المملوك الوسخ، ساعتها كانت البلاد تشكو التوتر، لم يكن أمامك إلا أن تتمسك بالحياة، وبقدر إدبارها كان إقبالك، فلا

fb/mashro3pdf

ضير أن تسيطر على سحن غريبة وصارمة، مادام الهدف أن أتعلم أى مهنة، تجعلنى قادراً على مواصلة الحياة.. »

ساعتها لم تكن تعنيه النتيجة، بقدر أن يكتسب مهارة تجعله قادراً على الوثوب إلى أبعد من موضع حط قدميه.. لذلك ترك عقله يكشف له الطريق، فتجول فى الأسواق، عاين كل المهن، فلم تعجبه الغالبية العظمى منها، فظل حائراً يجرب: فى البداية عمل فى مهنة المكارية، يتسلم الركوبة من شيخ المهنة ونقيبها من طلوع شمس النهار حتى حلول الليل، فانهد حيله من كثرة رمحه خلف الركوبة، فتركها وعمل حداداً، وصبيًا فى محل إسكافى، ثم عمل فى محل جزارة، فزهق من الدماء وكذلك من ورق أشجار الموز التى يلفون بها اللحم، وقبل نهاية الرحلة عمل ناطوراً فى حمام، يظل قابعًا بجوار ملابس الزبائن، وفى نهاية اليوم يقوم بتنظيف الأحواض.. فى يومه الأخير، وبعد خروجه، راح يضرب على غير هدى متسكعًا فى الحوارى والأسواق، لفت نظره حلقة من البشر، فدس نفسه بينهم، فلمح فى وسطهم رجلاً يراقص ثعابينه، والناس من حوله، تصفق له إعجابًا بالقوة التى يمتلكها.. انتظر حتى أنهى الرجل ما يقوم به، وجمع ما جادت به أيدى الناس من عتق (١)، وتبعه فى سيره وهو يتجول فى الحوارى، راقبه وهو يقف أمام حانوت فى سوق البزازين، وجده يخرج من جيبه لفة، يدسها فى يد صاحب الحانوت ويهمس له:

- هذه تذكرة من كتاب النبى داود.

---

(١) عتق: نوع من العملة

fb/mashro3pdf

تهلل وجه الرجل ونفحه مبلغا، وهو يقول:

- يجعل فى يدك الشفاء.

دق قلبه وقال: وجدتها .

وراح يضحك على الرزق الذى يرمى لصاحبه بدون تعب، وأخذ ينشد قائلا:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى..

وضيعتى فيهم وإفلاسى .

ما حال من درهم أتقاضه .

يأخذ من أعين الناس (١)

احتار فى أى جانب يضعه، فلم يكن عليه أى شىء يدل أنه تابع لطائفة بعينها، فهو بالطبع ليس من الشطار الذين يعدون سرقة الناس مهنة وليست جريمة..

لكن دخوله المدافن وهو خلفه، جعل قلبه يرتجف، لرؤيته وجوه الشطار تطل عليه، أغلبهم يشكون التشوّه الحادث فيهم، والمتعدد الأوجه، منهم فاقد العين ومنهم مبتور الساقين أو اليدين.

وجب عليه أن يختار بين أن يكون حاويًا، فيقطن بين الشطار فى تلك المدافن التى تذكر دائمًا بحالة العدم، أو أن يكون عايقًا أو حرفوشًا، يتسول الناس بجفاء، ولا يتركهم إلا إذا أعطوه مما أفاء الله عليهم..

مال عقله إلى الاختيار الثانى طمعًا فى أن تسوقه الأيام لسدة مشيخة الحرافيش، ولِمَا لا..؟ والدنيا من حوله يراها تسلطن

(١) شعر ابن دانيال الكحال .

fb/mashro3pdf

أصحاب أنصاف المواهب من المماليك، فلا عجب إذا أصبحت له الكلمة العليا عند الحرافيش، فتصحبه الصفاقات والطبول أينما حط، فيسهل إثارتهم وهم كثر، بسبب ترك الفلاحين القرى هربًا من المجاعات ومن قيد المكوس وخلافه.

بينما هو فى تلك الدائرة الراكض فيها فكره، وفى انحناءة طريق تصيده الحاوى الذى كمن له، عندما لفت انتباهه، ضمه فى حضنه ضمة قوية وزنقه ليصبح محاصراً بين جسده وجدار إحدى المدافن وسأله:

- ما حكايتك..؟

- أريد صحبتك.

- تقدر عليها؟

- جرب.

- وإذا فشلت؟

- لك الحكم.

قال له:

-اسمع: قبل أن تتبع خطاى لا بد أن تعلم أن الدنيا إذا تسلمت أحد الناس فإنها تقلبه على الجنبين، تعجنه وتخبزه، فإما أن يكون لقمة سائغة لذيذة فى الأفواه، أو يقف فى الحلق، فيظل يثير قلقًا وحيرة، كلما جال فى خاطر أحد أن يأكله.

دهش من كلامه المرتب الذى لا يتفق مع الحاوى، فعبر عن ذلك:

- تلك الكلمات ليست بأقوال الحواة..!!

fb/mashro3pdf

- صدقت.

- إذن فمن تكون..؟

- أنا صوفى فى جلباب الحاوى، وهذا ما أريده لك، فانظر إلى هندامى.

نظر فإذا هو أمام رجل فى أحسن ملبس وأحسن حال، فهو ليس بحليق الرأس، وليس فوق رأسه ريش..

- هل نظرت..؟

-نعم..

- عرفت الفارق؟

هز رأسه، فواصل الحاوى:

- أعلم أنى جمعت من صفات الصوفى ما ينفعنى ومن صفات الشاطر ما يعيننى على القيام بواجبات مهنتى، فمن الحاوى ستجد الخبث والدهاء، ومن الصوفى أن تظهر للناس أنك بعيد عن الدنيا وزاهد فى مالها، حتى إذا سلبت من جيوبهم كل فلس وعتقة، فلن يلومك أحد..

- هذا كل شىء..؟

- بل هناك أمر أظن أنك لا تقدر عليه.

- ما هو؟

- واجبك نحوى أن تطيعنى.

- أمر بسيط

- إذن قرب لى أذنك.

fb/mashro3pdf

رفع العمامة، فبانت فردة أذنه، وبحركة بهلوانية، ألقمها فم الثعبان، صرخ، ثم سكت سعيداً بصك وختم الحاوى، الذى أفرج فمه عن ابتسامة وقال: أنت الآن منا وعلينا. . .

يتنهد وهو يهرس بين أصابعه بعض أوراق الشجر الجافة، متذكراً كيف كانت عضة الثعبان مؤلمة مثلها مثل الغيب القادم الذى يريد إبعاد الطفلين من طريقه، الطفلان اللذان لم ينبت لهما الزغب حتى الآن. .

يرمى بالأوراق، يصوب نظراته إلى زهيرة المنهمكة فى أكل القريللا، ويقول لنفسه: كان لا بد من إقناعها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢)

فرغ الجميع من الأكل، وارتشاف الماء المحفوظ فى المزملات(١)، وعادوا إلى الكانون لينضموا إلى زهيرة وجاد وعلى..

يرفع أحدهم عينيه، يجريهما على صفحة السماء القريبة من الصفاء، لولا بعض النتف القليلة من السحب البيضاء، يقول نشوانًا من أثر امتلاء بطنه بالقريللا:

- ما أحلى تلك الليلة!

لا يرد عليه أحد، فيواصل:

- منذ زمن لم تجمعنا تلك الجلسة.

ترمقه زهيرة بطرف عينها، ثم ترنو إلى السماء، تلمح سحابة تتحرك فى اتجاه القمر، سرعان ما تقتحمه، فتحجب جزءً من ضوئه الذى سرعان ما يتلاشى نهائيًا، لتغيب ومضة الشبع الساكنة فوق

(١) أوعية تحفظ فيها المياه.

fb/mashro3pdf

الوجوه من أثر الوجبة العشبية، فتبدو رمادية كرماد جوهرة «على» التى أضاعها بتهوره، هكذا تتخيلهم زهيرة .

تعود لتتابع القمر الذى راح يخرج من محنته.. تعانقه، وتشرد..

منذ أيام وفى ليلة بلا قمر، خاصم النوم أجفانها، ظلت ساهرة، تفكر فيما حدث..

انتبهت إلى ثديها واللبن الذى كان يطرده، فيبلل ما حول الحلمتين، شاهدت فسقط الخوف فى قلبها، تشبث بها إذ تذكرت أن الصغيرين لم يقربا صدرها منذ الصباح، شغلها ما كانت تقوم به، من إعداد قطع الحلاوة وتجهيز المسحوق خوفًا من مرور الوقت بدون أن تُحضر ما تطلبه فرحانة التى- دائما-تأتى فى عجلة من أمرها، لذلك لم تعتن بالصغيرين إلا خطفًا، اكتفت بإلقاء نظرات سريعة عليهما، لتتأكد أنهما فى نوم عميق، وأن كل منهما لم يغير الجنب الراقد عليه..

حضور فرحانة جعل الفأر يلعب فى عبها، والخوف يتغلغل أكثر، فيصبح عنكبوتى الزحف، جعلها فى غياب تام، لدرجة أنها لم تسمع مطالبتها لها بضبط نسبة الزرنيخ إلى نسبة الجير فى المسحوق، لأن نائب الحسبة قد يقصد البلد، وأكدت ذلك بقولها:

- هذا ما قاله واد خيبة والختمة الشريفة، هو قال ذلك، وطالبنى بأخذ الحيطة..

ما كان يهمها هذا الخبر الذى سربه واد خيبة، بل الذى كان

fb/mashro3pdf

يهمها ما قالته فور حضورها، فكان لا بد من سؤالها:

-هل ما قلتيه لى حدث بالفعل..؟

- نعم الكلام به الكثير من الصدق، خصوصًا أنه خرج من فم واد خيبة أمير أخور فرس الكاشف..

- ليس هذا ما يهمنى..

- إن لم يهمك ما نستعين به على المعايش. ! فأى شىء يهمك؟

- حكاية القطط..

- حكاية لها العجب، مثل النار تنتقل بين الناس، جعلت الكلمات تتخلخل وتقع من حنك كل واحد عاش السنين التى فاتت وهو ساكت، ينتبه، ويعرف أن لها فائدة، وليست حكراً على القرة قوز، فأصبح الكل فى حالة يقظة، واشتد الأخذ والجذب، حتى أن ناس الشق كلهم بلا استثناء، يبيتون ويصحون على حكاية القطط الشقية التى لا تستهدف إلا بيوت أولاد الناس أصحاب الوجوه الشقراء، فحولوا نهارهم إلى ليل، وليلهم إلى نهار، كل ذلك من أجل الإمساك بهم..

فى صباح كل يوم تقف امرأة أمام بيت من البيوت المغتصبة، تصرخ شاكية غياب اللبن وقطع اللحم، واختلاط الغلة بالدقيق.. نساء الشق يسمعن، فيكتمن الضحكات التى تتردد داخل بيوتهن، ويقلن: لديهم دقيق وغلة وحواصلنا خاوية، يستحقون كل ما يحدث لهم...

هذا لا يمنع من تسمع منهن الصرخات مشاطرة الشاكيات

fb/mashro3pdf

الحزن، من باب الأخذ بالخاطر. . .

فى إحدى المرات، قالت واحدة إنها رأت أحدهم، يلغ فى اللبن، والثانى يقف يزغر بعينين كالبلُّور، يراقب المكان، ولما اقتربت منه، شعرت كأن نور عينيها سرق منها، فلم تستطع متابعة ما يقومان به، فأشاحت بوجهها بعيداً عنهما فعاد نظرها، وعادت الرؤية واضحة، فالتفتت بسرعة، فاسودت الدنيا أمامها، ولما أعطتهما الأمان وخرجت، استعادت ما فقد منها. . .

الحكاية التى قالتها فرحانة، زادت النار اشتعالاً، جعلتها مهمومة فى جلستها، فلما صعدت النار إلى رأسها، قامت إلى الغلة المنشَّرة خلف الدار، وهى فى طريقها لم تلق بأى كلمة على «على» المسند ظهره إلى الجدار والسارح فى ملكوت نفسه. .

مدت يدها لتقلب الغلة بينما عقلها يركض فى أفكار كانت مجرد هواجس، أما بعد كلام فرحانة دخلت محيط الحقائق، صحيح أنها فى البداية لاحظت إقبال الصغيرين على صدرها، يلتقط كل واحد فردة من ثديها، يظل يمص منه لبنًا، فلا يتركه إلا بعد أن يستنفذ ما به، تسعد هى بعلامات الشبع التى كانت تعكسها نظراتهم. .

استمر الحال هكذا لمدة ثلاثة شهور، بعدها كانت تقرب الحلمة من فم الواحد منهما، فيلفظها بلسانه، خافت وجزعت، قالت لها فرحانة إن الدنيا علمتها أن الطفل لا يقبل على صدر أمه فى حال إذا كان هناك التهاب فى سقف الحلق، وهذا النوع لا يعالج إلا بالبن

fb/mashro3pdf

وعصير الليمون، ووعدتها بحفنة من البن فى اليوم التالى عند قدومها، ولِمَا لا..؟ هكذا قالت، وقامت إلى الطفلين، فحصت، فلم تجد أى التهاب فى فم أى منهما، أسلمت أمرها لله، وقالت: الملائكة تولت أمرهما..

بمرور الوقت، جف اللبن، فتقلص حجم الصدر، واكتفت هى بمراقبة الطفلين، فلم تلحظ عليهما أى طارئ، بل كانت أوزانهما فى ازدياد مطرد..

ظلت هكذا حتى كانت ليلة، قامت فلم تجد «على» بجوارها، فتحركت بداخلها رغبة الأنثى، فقامت وخرجت من هدومها، فشمخ جسدها فى عتمة الغرفة، وخرجت إلى على الذى أخمد النار المشتعلة بداخلها.

فى طريق عودتها، تجنبت أن تمر على الصغيرين وهى جُنب، حرصها لم يرفع المكتوب، فبدون أن تدرى داست على يد أحدهما، الغريب أن الصغير لم يصرخ ولم يحرك ساكنًا، فضربت على صدرها، وغزاها الخوف الذى تغلغل، فبركت، تقلب فى الصغير، فلم يبد أى حركة، فمالت أكثر، وجدت لقلبه دقات تشبه إلى حد كبير دقات من يجرى، أو يُطارد..

تحركت بسرعة غريبة كل المشاهدات، لضمتها، فاتضح الأمر، كادت أن تصرخ إلا أنها كممت فاها بيدها، وتراجعت للوراء لتلوذ بالجدار، وتجعل عينيها على الصغيرين.. تراقب ما يقومان به حتى طلع الصبح..

fb/mashro3pdf

تمر سحابة أخرى، لكنها أكبر حجما من الأولى فتحجب قرص القمر، فتعود العتمة، لتلقى بظلها على الوجوه وعلى زهيرة التى عادت من شرودها، لتبحث عن على بين الوجوه الرمادية. .

fb/mashro3pdf

(٣)

أشياء كثيرة لا تريد مغادرة ذاكرته، تتمسك بأمكنتها، لا تريد مغادرتها مهما حدث ومهما جلبت من متاعب، ومهما فعل هو ليغض الطرف عنها وعما تفعل بداخله الهش، هى باقية..

إحدى هذه الذكريات تستحوذ عليه، تشده، فيغمض عينيه، ويبحر متذكراً ذلك اليوم الذى فقد فيه جذوره تحت سمع وعين الجميع، حينما وفد لقريتهم وإلى الإقليم، مطالبًا الناس بفردة القدوم (١) من أشياء يمتلكها البسطاء: أغنام، ماشية، طيور، وغلال..

صرخوا:

- هذا فوق طاقتنا..

رد القاصد:

---

(١) فردة تفرض بسبب قدوم الحاكم إلى البلد.

fb/mashro3pdf

- الكلام فيه تكرار، وأنا لست بحمار، فالليلة أقضيها وغدا لا أعذار..

قال الحكماء: لا مناص من الفرار لحين انكشاف الغمة..

خرج الناس فى جنح الظلام، قصدوا مغارات الجبل للاحتماء فيها، دخلوها، وحول حفر النار التى عملتها أيديهم راحوا يتبادلون نتفًا من أحاديث قديمة، تدور جميعها حول الخراج، وكيفية تقديره بوصول مباشره الذى يغربل الأرض التى يشملها الرى، والأرض الشراقى التى لا تصلها مياه الفيضان. .هذا ما فعله، لكنه لم يضع فى الاعتبار ما حدث بسبب الجراد الذى هجم فقضى على الأخضر واليابس..

قال حكيمهم: هذا كلامنا، لكن كلام الفنداق (١) مصدق، يعضده شهادة العدول.. فالدفع أو الحبس، فى الأولى النجاة وفى الثانية العذاب كله، فتُعاملون معاملة أصحاب الجرائم، فإذا هلت المناسبات، خرجت المسامحات تبشر بالعفو عن الأوباش من أرباب الجرائم إلا أنتم يا من قصرتم فى دفع الخراج..

- إذن الخراب لا بد أنه واقع..

-ليس فى ذلك شك..

وكان السؤال: إلى أين نمضى؟

قال الحكيم:

-بلاد الله واسعة.

-لكننا مللنا الترحال.

(١) الدفتر الذى يسجل فيه خراج الأرض.

fb/mashro3pdf

– ما باليد حيلة، هو المكتوب عليكم أنتم يا أبناء الطوارئ، إذا ما حلت بكم مصيبة.

قامت الأجساد، والحسرة تنهش قلوبهم، تلقى نظرة الوداع، فإذا البيوت شعلة نار ملتحمة، بكت النساء، وقال الرجال:

-المعوض كريم..

فى الصباح أُمروا بإلقاء العمائم، وارتداء القحوف، حتى لا تصيبهم غضبة أولاد الناس، بسبب العداوة المستحكمة..

وساروا بمحاذاة سن الجبل.

مر عليهم فلاح، قال لهم: إن المماليك جمعوا أمرهم، يريدون بهم الشر، وطالبهم بالحيطة والحذر..

هنا كان لابد من وقفة، فقال الحكيم:

– عليكم بتغيير لكنتكم، وإعادة الحروف إلى سابق عهدها، وتجنبوا قلب القاف إلى كاف ..

ظل الواحد منهم يردد الكلمات الداخل فيها القاف، واضعين نصب أعينهم ما حاق بالأجداد من مصائب من وراء ذلك الحرف، مرة يجانبهم الصواب، ومرة يقع فى الزلل..

تذكروا المآذن التى ارتفعت، وكذلك الأهرامات التى شيدت، والتى جميعها من رءوسهم، والسبب ذلك الحرف الذى أخذ الكثير ولم يُبق إلا على النساء والأطفال..

وتكلم الخوف بداخلهم.. فقال أحدهم:

– ما المانع فى تكرار ما حدث، خصوصاً لا سيف ولا نشابة ولا

fb/mashro3pdf

فرس بموجب منشور سلطانى معنا.. ألم يكن البقاء أفضل من الهرب هكذا فى جنح الظلام؟.. تلك الحركة التى لن تجلب إلا الدمار والتشرد فى بلاد الله لخلق الله. كان يمكن التذمر فى البلدة، ساعتها لن يكون العقاب شديداً، فقط قد يطال البعض منا بعض ضربات من السوط السودانى المسقى زيتًا، مع الأيام يضيع الجرح.. أما الهرب فلا عقاب عليه إلا فصل الرقاب..

أفكار تأتى وتذهب. بعد أن تنجب أفكاراً أخرى أشد وخزاً.

لوقفها كان لا بد من تدخل العجوز الذى أوقفهم تحت شجرة سنط وكلمهم:

- إذا اعترضوكم فقولوا إننا حضر.. أرغمتنا مياه الفيضان على الرحيل وترك الديار.. لا تنسوا- كذلك- رقابكم المرهونة فى خطاف القاف ..

قال ذلك وخر ساجداً، طال سجوده بمقدار معلوم، ثم نهض وأكمل:

- نحمده حمداً يعذب ينبوعًا، فينبت به مزيداً من الخضرة (هنا ضجت النساء وقلن: أين هى الخضرة..؟ تركناها هناك لخيولهم تلتهمها ولزرابينهم (١) تدوسها.

حجّمتهم عيون الرجال فعدن إلى الصمت، وعاد العجوز ليكمل ما كان يقوله)

- ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتفرع فروعًا، وتسكن جموعًا، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.. وبعد..

(١) الزربون: الحذاء

fb/mashro3pdf

فإنه لا يستقيم نجاح الأمور إلا بالتدبر ولا يستدام الوجود إلا بالحيلة، اللهم إنى بلغت اللهم فاشهد. .

ثم شد يديه إلى السماء وراح يدعو:

- اللهم أهلك الظالمين بالظالمين. .

- آمين. .

- اللهم اجعلهم هم وأولادهم ونساءهم غنيمة لنا.

- آمين. .

آمين يا رب العالمين.

ومسحت الوجوه براحات الأيدى. . وساروا. .

أجبرهم النهر، عند نقطة تماسه مع الجبل على المشى فى المدق الخارج من نقطة الالتقاء. أثناء ذلك بدت الدنيا التى اتسعت بما عليها من خضرة، كأنها ضيقة كخرم الإبرة، ورأى العجوز أن لا جدوى للكلمات فلزم الصمت الذى سرعان ما كلبش بالقلوب عندما وجدوا كمينًا من الجنود أمامهم. .

أيقنوا أن رقابهم قريبة من السيوف، ولمنع هذا المحتوم لم يكن أمامهم إلا التقدم ووضع نصائح العجوز أمام الأعين التى لم تعد تبصر بكامل قوتها. . . .

- قفوا.

أمر صدر، فوجب تنفيذه. .

تفحصهم مقدم الجند بعينين يقظتين، ولما انتهى، عقف يديه خلف ظهره، وقفل عائداً حتى واجه جنده ثم استدار وزعق فيهم:

fb/mashro3pdf

– إن فى اجتماعكم الضرر كله.. فالظاهر أنكم لا تعرفون المنشور الذى يحرم التجمهر، والبلد كما تعرفون تمر بظروف صعبة، والظاهر أيضاً أنكم لا تعرفون أن فى تفرقكم الخير كله، لأنه يجعل الفلاح يعود لأرضه، والصانع يعود لصنعته، وهذا الجهل بالطبع لن يعفيكم من العقوبة، والعقوبة كما تعرفون فى مثل تلك الظروف يحددها المنوط بها، وأنا لها..

أمر بعزل الصغار والنساء فى جانب، والرجال فى جانب آخر، وبإشارة من يده أحضر رجاله حطب اللبخ، فمال واختار اثنتين، وطلب أن يتقدم رجلان. فلم يتقدم أحد. فتقدم هو واختار.. كان أحدهم شوشة..

وقال لهما:

– عليكما بلعب اللبخة، فإذا ما تفوق أحدكم فعليه بضرب زميله ضربة موت..

سمعا فتراخت الأيدى القابضة على حطب اللبخة..

حدق فيهما وقال:

– هذا لا يفعله إلا الطوارئ..

هنا وجب على العيون أن تتلاقى، ويتم الخطاب بالنظرات، لتقول إن المحظور قريب منهم، وعليهم بالثبات، والبقاء بلا حركة كأن الطير تحط فوق رءوسهم، فقط قد ترمش عين أحدهم، لكن المشهد كان برمته يظل ثابتا يصاحب لحظة الإغلاق.. الذى لم يطل زمن تمسكهم به، تحت وطأة الضرب المبرح، الذى جعلهم فاقدى

fb/mashro3pdf

السيطرة على أنفسهم وأعصابهم. فى تلك اللحظة التى يصل إليها كل واحد منهم، يطالبه:

- قل دقيق .

ومن يقول والأجساد كانت غائبة..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٤)

يعود على من رحلته، مفضلاً عدم الخوض فى المشهد التالى الذى رأى فيه جسد أبيه بدون رأس..

ولا المشهد الذى تلاه و الذى فيه تم خوزقة العجوز بواسطة الخوازيق المدقوقة فى الأرض..

لم يرحمهم إلا الوالى الذى مر وبصق على وجه مقدم الجند، موبخًا إياه لأنه لم يحافظ على حياتهم، لأن الليل طويل، وكان يمكن التسلية بهم.

تقدم مقدم الجند من الوالى، قبل مهماز فرسه وأشار إلى النساء وقال:

– الفرصة ما زالت باقية، ولتكن النسوة فرشة يتم فوقهن إفناء ساعات الليل الملول. وهم بحق تجربة جديدة تستحق الارتياد.

fb/mashro3pdf

تهتز الصور أمام عينيه، فيغمضهما، ثم يفض التزاوج بينهما يجد القوة قوز [1] بجواره قد فرد ساقيه وبأصابعه راح يدلكهما بينما عيناه تجوبان فى صفحة السماء المحتقنة بسحب كثيرة متناثرة تتجه نحو القمر الساقطة خطوط ضوئه على الوجوه.. فيخاطبه:

- تعرف يا جاد أن الحياة هينة.

- هينة بمقدار تفريطنا فيها.

- وهل لنا اختيار؟

- إذا أردنا.

- كلام يا جاد تقوله فى الوسع، فأنت سيد العارفين أن القرار دائماً يسكن رءوس الأسياد.

- بل القرار قريب من أيدينا، فقط نمدها لتلك الكوة.

- فسر كلامك.

- ليست لغزاً، فقط تبدأ وبعدها تكون السعادة.

- السعادة؟

- نعم السعادة، ألا تعرفها؟

- كلمة يا صاحبى غادرت قلوبنا، لأنها لم تخلق لنا نحن أصحاب القحوف والعمائم، بل هى لأسياد هذا العصر الذين تزين خصورهم بالحياصات [2] ومن يملكون فى أيديهم صكوك الإقطاعيات.

يضحك ويعود ليكمل:

---

(١) خيال الظل.

(٢) أحزمة تحيط بالوسط.

fb/mashro3pdf

– صدقنى يا صاحبى، ليست بالباب المتسع الذى يمر من تحته كل الناس.

يدير على عينيه، يمسح الوجوه التى بدأ يحنيها ضوء القمر الشحيح، والذى سرعان ما يختفى، فتكسو الوجوه طبقة رمادية..

يفارقهم ويعانق وجه جاد مرة أخرى، ويردد:

– مسكينة تلك الوجوه التى امتصها العذاب يا جاد، كلما خرجوا من حفرة وجدوا أنفسهم فى حفرة أعمق، هم يذبلون والأسياد ساكنو القصور يزدادون سمنة وتخمة، وما من يوم يرحل إلا ويعلن قيام سيد، يعلو نجمه على حساب نخالة الأرض الذين يصبحون عرضة لكلاب السكك، تنهش فى أجسادهم، فإذا ما رضخت سهل تحويلهم إلى مطايا، عندها لا يهم كيف يسقطون، بالطاعون أو بفعل فاعل، أو حتى بأيديهم من أجل الاستمرار كما حدث اليوم بالقرب من الموردة، منظر ربما صادفته أنت فى يومك أكثر من مرة، ولأننا يا صاحبى ليس أمامنا- على الأقل الآن – إلا الكلام، فاسمع ما جرى وكان. .انهال تاجر وصبيانه على فلاح بالضرب، بالسؤال عرفت أن الفلاح حمل حملاً من الدقيق ولما طالب بأجرته، لم تعجب التاجر اللهجة التى طالب الفلاح بها بحقه، فكان نصيبه علقة استطاع بعض الناس تخليص الرجل من يد التاجر، وبعد وقت قصير يعادل الوقت الذى يفصل بين الآذان والإقامة، عاد الرجل الذى ضُرب ومعه خلق كثير. نشبت معركة، تراموا خلالهابالطوب وبالنبابيت، فجرح نفر من الفريقين، أثناء

fb/mashro3pdf

ذلك أغلق كل صاحب حانوت حانوته.. ولم يتدخل أى وسيط لفض الناس. فى نهاية المعركة رأيت رجلاً بوجه مسحوب وحدبة فى ظهره، أيقنت أنه من أصحاب المهن، فدخل بجسده بين الأجساد المتعاركة والساقط عن رءوسهم القحوف، وصرخ فيهم:

- يا ناس، أين هدوء السر..؟

رد عليه أحد المتعاركين قائلاً:

- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فانسحب الرجل الذى قال له عبد الحفيظ القصاب:

- اتركهم يا عم فبعد ساعات سوف يتحولون من ديكة تتصارع إلى فيران تلبد فى الجحور مفزوعة..

يسكت على، ولا يجد جاد ما يقوله، رغم أن صنعته تتيح له الكثير من الكلام الذى يتفنن فى إخراجه بين أربعة جدران من القماش المشدود على برواز من الخشب، يكون بينهم صاحب محبرة وريشة، يرمح فى براح الدنيا، يأتى من حكاياتها ما يسلب اللب.

مهنة جعلته يمد زمن وجوده على وجه الأرض، لم يطل وقت اختياره بين ما تعلمه وكيف يكون العمل وبين ما يجب أن يكون ليساير الأيام متحايلاً عليها.

بسرعة وضع قدميه على بداية الطريقة، واستطاع أن يجعل من اللحظات التى يستحوذ فيها على العيون والعقول لحظات استثنائية، تظل فى ذاكرة كل من يشاهده لفترة زمنية، كلما طفت على السطح، استطاعت أن تقتنص من فمه الضحكات وبذلك ينأى

fb/mashro3pdf

بنفسه عن الطرق الوعرة المحفوفة بالمخاطر (أقلها الجلد وأصعبها تقطيع الأعضاء بداية باللسان وانتهاءً برمز رجولته المعروف لدى بنات الخطا والخواطى) . .

يعلم تمام العلم أن المنطقة التى يعمل فيها لا ضرر ولا ضرار فيها، فمن يقلدهم يستحسنون ما يفعل، يستخلص من أفواههم الضحكات وكذلك لعتقهم الحمراء، صور يرسمها ويضعها فى أطرها، فلا يحق له الخروج عنها. يعينه العالم الزاخر الذى يعيش فيه، يتيح له التنقل بسهولة ويسر، مرة يتناول علاقة الحرفوش مع زوجته التى تمضى فى دلالها وتمنعه من أخذ ما أمر به الشرع، ومرة -وتلك المرات قليلة- يتناول أصحاب العمائم واضعًا نصب عينيه صورة الشيخ سيد كتكوت، يفعل تلك الصورة لمزاجه هو ليقنع نفسه أنه مازال القرة قوز، كتلك المرة، حينما سكنته الجرأة فقلده أمام الناس وفى حضوره، اختار اللحظة التى يكون فيها منهمكًا بعينيه يعرى امرأة أعجبته، من نساء البلدة المعولات عليه لحل كل ما يعترض حياتهن. .

ولما سألوه عن سبب اختياره، قال:

-ولم لا.. !!.. وهو ربيب أعمدة الأزهر من غاب هناك لمدة خمس سنوات وعاد كما أشيع أنه يحمل إجازة من نائب قاضى القضاة الشافعية، ليوكل إلى القط مفتاح الكرار الخرب بحاله، وبجلوسه فى الزاوية التى بناها الكاشف والتى زودها بميضأة... وكما عاد بالمرسوم عاد وبصحبته زوجته الدميمة، والتى لا تترك أى

fb/mashro3pdf

وصفة تسمع عنها إلا وطلبتها من زهيرة، لكى تسد عين زوجها الذى تعرف أنها فارغة ولا يسدها إلا التراب..

ثم سكت وخاطب نفسه:

آه.. لو دققن إلى عينيه، لعرفن أنه ثعلب، يدارى حقيقته بالمسبحة وبالجبة والعباءة الزركش، وهمهمات دائماً تتلاعب بها شفتاه.. من يدقق يجدها قبلات يرسلها فى الهواء.. لكن من يسمع ومن يعتبر..؟!

رسم فى الأفق صورته، طول بعرض.. وظل امرأة يظهر..

الشيخ سيد: آه لو تناغى دارى بجسدها، لجعلتها تركض فيه ركض الخيول فى ساحة التدريب.. صحيح لكل فرسة أصيلة خيالها الأصيل..

(يدقق عينيه فى خصرها، الذى من وجهة نظره لو تعلق به أطول ذراعين ما استطاعا ضمه..)

الشيخ سيد: آه منها وآه.. اعتادت ارتداء القمصان الفضفاضة الطويلة التى تتيح لجسدها حرية الحركة.. هى تلك ولا أحد سواها تصلح لحراسة الخانقاة التى سوف يرسم ببنائها الكاشف ذات يوم

(الخانقاة حلم يراوده منذ عودته من الأزهر، فى يقظته أكثر من نومه)

هنا تختفى المرأة ليظهر الكاشف وهو يلثم الكريمة، يستعطفه، ويطلب بركاته لينال رضاء الجارية المتدللة عليه، يجدها فرصة سانحة فيطلبها منه، قد تظهر علامات الاستغراب وسؤال ينبت فوق شفتيه، هكذا يتصور الحوار:

fb/mashro3pdf

الكاشف : تريد أن تكون صوفى شيخ سيد ؟

سيد : ألا تجدنى أصلح لها ؟

يتذكر الكاشف رقبته التى بيديه فيقول :

الكاشف : تصلح . .

قربه من الزاوية يعيده إلى الواقع وإلى جسد المرأة التى يظهر جسدها على الشاشة (ضلع تسقط عليه الإضاءة الصادرة من اشتعال الفتيل) . . .

فى لحظة اختفاء الكاشف يدنو منهابخطواته البطيئة ، يميل ناحية جسدها ، فيحتضن ردفيها المتعاركين .

فى أول مرة قال ذلك العرض ، غادره الشيخ سيد غاضباً ، قصد حاضرة الإقليم ومعه الطيور ، أهداها لمقدم الوالى ، الذى سمع منه شكواه ، وطيب خاطره وقال له سوف يؤدب . .

لم تمض تلك الليلة إلا وكان البهلوان فى سجن الولاية . . .

فى تلك الليلة هب جاد مفزوعاً على دوى ارتطام ضلفتى الباب بالجدران المتهالكة ، كان فى حضن إحدى النساء التى أطلقت صرخة مرعدة ، رددتها الجدران ، فلم يقدر جيرانه على فتح الأبواب لسماعهم خيول التجريدة الصغيرة التى استدعاها الشيخ سيد بقفص من الطيور . . ! ! . .

فى دار الولاية ، تخطفته لحظات خوف من أن يرسم الوالى بتجريسه جاعلاً وجهه جهة مؤخرة الحمار ورأسه بلا غطاء والعيال من حوله تزفه وهى تردد التعيس حطوا على رأسه جلوس لكن

fb/mashro3pdf

الوالى أمر ه بأن يعيد ما فعله لكى يسرى على ضيوفه وهم متحلقون حول سماطه وأيضا ليحكم بنفسه، قام بإعادة المشهد بعد استبعاد الكاشف من الموضوع، فضحك الوالى وقال: - هو الشيخ سيد بشحمه ولحمه.

وتركه يمضى بعد أن ألقى عليه إنذارا أخيراً، بعدم التطاول على الأسياد..

فى النهار يرسم الصور وفى الليل لا يبقى إلا المنقوع، وجاد الذى لم تمنحه الدنيا ما يستحقه، مكتفية بدفعه إلى بيوت بنات الخطأ والخواطى، ليتذوق لحمهن المباح لكل عابر سبيل يملك ثمن اللذة التى يمنحنها، صحيح أنهن أسبغن عليه فى بعض الأوقات نوعاً من الحماية عندما يشذ ويبحر فى الأحوال فلا تمتد إليه يد البصاصين ولا العسس.. فى هذا الجانب تبدو الدنيا سخية، أما فى تحقيق حلمه بأن يضم لصدره لحم فرحانة، فتلك أمنية مستحيلة ما دامت فرحانة تطارد الذل ليل نهار فى الطرقات وفى الملقة.

- تصبح على خير.

يقولها على ويمضى بدون أن ينتظر رد جاد، المسافر بعينيه فى جوف قرص القمر المتوارى خلف السحب العابرة، والذى يخيل إليه أن فرحانة فى وسطه تلاحق الذل، تقترب منها سحابة فيضيع أثرها، فيمد يده ويتناول وعاء المنقوع، يرتشف منه رشفة، ويتركه إذا يعود القمر ويظهر، يطيل النظر فيجدها فى وسطه، هذه المرة فى بيتها، تكتنفها الظلمة، وخوف يتراءى له يحط على وجهها.

fb/mashro3pdf

(٥)

الوحدة بين جدران بيت تكتنفه أمارات حزن يمسك بقلب يُفتح جرحه عشرات المرات كل يوم، لهو الموت بعينه، يزورها مع كل خبر يتنامى إلى سمعها، يحمل خط سير يومه، ونتفاً من تصرفات الناس والعيال معه، تسمع وقد تعقب إذا وجدت أن هناك حاجة ما تدعوها لذلك، وقد تسكت إذا ما حمل ما سمعته خطراً يقترب منه وهى عاجزة لا تدرى ماذا تفعل والحيرة تسد عليها كل الأبواب، تحول بينها وبين الحركة، وكذلك لجمر السؤال الوحيد الذى يصر على طرق أبوابها كل يوم.. ماذا تفعل قليلة الحيلة؟ المقطوعة من شجرة.. لا إجابة شافية، تسعفها لتقطع دبر الحيرة، وتبعدها عن بحر الدمع الذى كاد أن يذهب بنور عينيها الذابلتين، ما فعلته من أجل إعادته ذهب بكل ما ترك قبل رحيله إلى دنيا لا تعرف إن كان

fb/mashro3pdf

اختارها بمحض إرادته، أم هى التى سلبته عقله واصطفته لنفسها؟.. النتيجة الملموسة من جراء تلك الغيبة هى الوحدة والعذاب التى تعيش بينهما، والثابت لديها بعد حول من الغياب أن لا أمل من عودته..

ها هى بين جمع من العيال بجوار الحشية المفرودة، ترضخ لتوسلاتهم وتبدأ بالحكى:

«الفرخه فوق السطح، والسطح عاوز سلم والسلم عاوز مسمار، والمسمار عند النجار، والنجار عاوز بيضه، والبيضه فى بطن الفرخه، والفرخه عاوزه قمحه والقمحه فى الأجران، والأجران عاوزه الدراس، والدراس عاوز نورج، والنورج عاوز مقرقر، والمقرقر فى الملقة، وخداه الدنيا المسحوره»

يختنق صوتها، وتسرسب عيناها الدموع، يرى الأطفال حالها فينصرفوا وأخيلتهم تحاول إكمال الحكاية..

تعلم أن الحكاية مفتوحة تقبل أى نهاية، إلا نهاية العودة لنقطة البداية، التى تراءت لها ذات يوم فقالت لبسيط إنه سوف يعود، ضحك الرجل، وجرت عيناه على جسدها الذى ضج من قلة جريان الماء، لم تجفل، ولم ترهبها نظراته الشهوانية، لمعرفتها التامة به وأنه حنك مفتوح يثرثر بالكلمات، لتجارب مرت به وعاينتها بنفسها، فهى لا تنسى يوم وصول المكاتيب التى تبشر بقرب وصول القاصد وكيل الخراج وبصحبته الفنداق.

ساعتها قال بسيط لعطية النجار:

fb/mashro3pdf

- لا بد من وقفه ضد ما يفعلونه .

- إذن هى دعوى إلى الثورة .

- ولِمَ لا؟

هز المقدس عطية رأسه، كأنه يدير الكلام ويقلبه، لمح بسيط ذلك، فواصل:

- إلى متى يا مقدس نجعل الغنم تحت حراسة الذئب. .؟

- كله بيد الرب .

- والعبد أيضا.

- وأين هو ذلك المرشد الذى لو وجدناه ما تساقطنا مثل أوراق الشجر.؟

- موجود يا مقدس .

غم على المقدس، فحل بسيط طلسم كلماته قائلاً:

- فالعبد كما تعلم بسعده لا بسعد أبيه وجده .

- لديك كل الحق، فيكفينا ما يؤخذ منا مسانهة(١) من خراج، يكفيهم ذلك أما ما يفرض من مغارم ومكوس فإنها تأخذ على كل شيء.

فى يوم السوق وقف وكيل الكاشف ونائب الدم ومعه جنوده يحصلون الغرامات على كل شيء ذاهب إلى السوق.

تصادف أن كان المقدس يسوق غنمتين بغية بيعهما قدام بسيط الذى يحمل فوق كتفه حباله ومرابطه وأحجلته، التى قضى فى صنعها أياماً كثيرة ما بين تنسيل الليف ورشه بالماء ثم فتله، كان

(١) أى سنوياً .

fb/mashro3pdf

يحمل كل هذا ويسير تحت شمس راحت تسيط ظهره، تجعله يعرق، عينه كانت على عطية وهو يدنو من الكمين.

تقدم نائب الدم من الغنمتين، فحصهما، أعجبته واحدة فأمر أحد جنوده بحجزها، تذكر المقدس كلام بسيط، فاعترض على ما أمر به نائب الدم الذى احتقن وجهه وشد المقدس من زنطه ثم دفع به إلى جنده، فساروا به إلى مكان التعذيب، استعرضوا معه الخوازيق المدقوقة فى الأرض والبكرة المرفوعة على الصارى، كذلك النعال التى تنعل فى أقدام الخلق فما كان من عطية إلا أن ترك الغنمتين لنائب الدم وجنوده.

فى مساء ذلك اليوم مر المقدس على بسيط، لم يرسل إليه أى التفاتة فكلمه بسيط يريد أن يهدئ من نفسه الثائرة عليه عندما لمحه يدفع ما أُقر عليه من غرامة بدون أن يُظهر أى معارضة، فوبخه المقدس قائلا:

- الرجل يربط من لسانه. .وهذا الرجل وصفه القديس يوحنا عندما قال ليكن أصحابك بالألف وكاتم سرك من الألف واحداً .

هذه الحادثة وغيرها جعلتها لا ترد على ضحكاته، حتى لا تعطيه الفرصة لفتح فمه، ذلك الصمود لم يرق له، ومن أجل جرها قال لها:

- زوجك جن .

- جن لما يركبك .

رد جاء بدون تفكير لما سوف يجر بعده من كلام من فم كفم

fb/mashro3pdf

بسيط، الذى استغل الموقف وقال:

- إذا اقترب فسوف أدير له مؤخرتى .

انسحبت من أمامه، لتلوح لها نفس الحقيقة على لسان على شوشة، بعرضه إيداع الذل البيمارستان(١)، تكاد تصدقها اليوم بعد أن وصل إليها ما فعله مع الشيخ سيد كتكوت..

تحاول تجاهل تلك الخاطرة، بالانشغال بأمر ما، تنظر فلا تجد إلا منقولات البيت القليلة، فتعبث فيها، كطريق للهرب من تلك الأفكار خوفًا من أن تكشف لها داخلها الهش، الظاهر للعيان أكثر تماسكًا من الجبل الضام البلدة فى حضنه والساكن عنده أغلب الأهل.

تمسك بالمكنسة الليف وتبدأ بكنس الأرض، غير مهتمة بالغبار الذى يطال وجهها، تنتهى فتقوم إلى الآنية القليلة فتشطفها، وهدوم الذل المصلوبة على مشجبها فتعيد تقليبها ونزع ما يعلق بها من قش وسوس نتاج تآكل السقف، وفى النهاية تقيم علاقة بين وجهها والماء، تداعبه بأناملها التى تكشف لها عن الأنثى التى بداخلها، المشتاقة إلى أنفاس الرجل لتلفح عنقها ومنطقة صدرها، لتسعد بلهاثه.

تعرف أن هذه الطريقة تحول مجهودها كله إلى مجهود عضلى لبعض الوقت، لكنها تتعلق بها، ، دائمًا تدعها إذا ما انتصف الليل حينما تسكت الأجساد عن الحركة، ويعلو نباح الكلاب وصرير الجنادب ونقيق الضفادع. .لكنها كانت استراحة لا بأس بها..

---

(١) المستشفى.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٦)

ترقب الفتيل الذى قارب على الذبول، لتعيش بعده فى دنيا تطبق فيها الظلمة، التى بلون حياتها منذ فقدها لرجلها الذى كان يعشش عليها، ويمد ذراعيه، ويطوقها فتركن إلى صدره، تداعب غابة شعره المهوش، النابتة على لحمه المحروق من شمس أرض السواقى والأجران. هذا ما كان، أما الآن فهى وحيدة، كل شىء يمضى حولها، كما كان، وكأن الدرب لم يفقد رجلاً من رجاله، ولم ينم فى فرشته لحول انقضى.. أخذته نداهة شبقة، هكذا توقن..

تدير عينيها، كل المكونات تتماوج مع اهتزاز لسان الفتيل، الذى بدأ يلفظ أنفاسه، لم تعد تهتم بالعتمة إذا دخلت، لكنها وسطها تصرخ صراخًا مكتومًا، تلعن الوحدة، تقول وحيدة، ترددها الحيطان المشتاقة لأنفاسه، تقوى ما بين الجواليس لتتماسك، تقترب

fb/mashro3pdf

من الحشية المكبوسة بورق البصل والقصب، تهيج نفسها، وتجدف للوراء، مستعيدة ما جرى وكان...

نظراتها توزعها بينه وهويقفقف من البرد، وبين الجاموسة التى لم تطلق خوارها منذ طلوع النهار. تمد يدها تتحسس جبهته، تلسعها الحرارة القايدة فيها، فتسحبها، وتقوم إلى الحفرة الموجودة فى المكان الفاصل بين المجاز والزريبة، تقلب الدمس الموجود فيها، لا تتركها إلا بعد أن تشب النار. تعود إليه تطالبه بالقيام، لا يرد عليها كأنه فى دنيا أخرى، مستسلمًا، لامًا ذراعيه بجواره، عيناه تنظران لشيء غير منظور، هى أبعد ما تكون عن محيط رؤيته، كأنها قطعة من جماد، وليست أنثى تحمل بين جوانحها غواية الأم الأولى، التى منها تعلمت كيف تجرده من خلوته إذا أظهرت له خبايا الجسد المعجون من نار الدنيا التى إذا ظهرت للعابد المنقطع فى جبل بعيد، فإنه يتمسك بالقانون القائل: ساعة لقلبك وساعة لربك.

تقترب منه، تهزه، فلا يخرج صوتًا، تماسكت، وكتمت صوتها خوفًا من أن يخونها فيلمّ عليها أهل الدرب. ..وجلست بجواره مستسلمة للأفكار.

حدثتها نفسها: أيكون سمع بأمر المكس الذى أعلن عنه واد خيبة؟، الحال يقول إنه سمع مثله مثل أهل البلد، والأكيد أنه تساءل عن اسمها، وعرف أنها مكس السرحة (١)..، وإن كان لا يهم الناس تحت أى اسم يتم جمع المال، فالأسماء كثيرة. .، ولكن الذل كما تعرفه رغم ضعف قلبه، وأن أقل شيء قد يعكر داخله، إلا

(١) أموال تجمع عند خروج السلطان للأقاليم.

fb/mashro3pdf

أنه بخصوص المال كان دائمًا يقول :

- ربنا يقضى ما علينا .

وتذكرت اعتراض ممالـيك الوالى طريقه ، يوم أن أعجبتهم حمارته ، أنزلوه من فوقها وأخذوها ، لم يبد أى مقاومة ، ولما عرفت ، ضربت صدرها بيدها وصرخت :

- خدوها ؟

ضحك ، فتوترت أكثر ، وراحت تنفخ الهواء وتشفطه فى حركات متتالية ، أرادت أن تلومه على تساهله فى حقوقه التى يفرط فيها بسهولة ويسر بدون أن يقيم الدنيا ويقعدها ، إن لم يكن بالفعل فبالكلام ، وهى فى هذه الحال كان هو مستمرا فى الضحك ، فتقلصت ملامح وجهها ، وكفت عن الركض حول ما كانت تفكر فيه ، وسألته بلهجة بها الكثير من اللوم :

- لم لم تتأخر ؟

تمسك بصمته ، تركته و قامت ، دخلت إلى الزريبة ، قلبت العليقة الموضوعة أمام الجاموسة ، وخرجت من عندها ، أشعلت نارًا فى المنقد ، قمرت الخبز ، سحبت البغلية[1] من تحت المشنة ، لم يمد يده ، حاول مداعبتها ، لم تتجاوب معه ، جفلت منه فقال :

- درت للبحث عن منفذ ، فلم أجد ، فى كل طريق كان لهم كمين .

- كنت قلت لهم إنك من محاسيب الكاشف .

ضحك وردد :

---

(١) العدس (أبو جبة) المهروس .

fb/mashro3pdf

- معقول أشكو الولد لأبيه؟

ولأنه يعرف طبعها الحامى، ورغبة منه فى كسر حدة الموقف، مد يد وكسر كسرة من خبز الذرة المخلوط بمسحوق البامية والحلبة وقال:

- يا سلام لو كان خبز الحوارى.

- نفسك فى الخبز واللا فى أفخاذ الجوارى التى يفرد عليها ؟

غمز لها بطرف عينه وقال متهرباً من الإجابة:

- لما أخذوها قال لى أحدهم إنها ذاهبة لتشارك فى المحمل. .

لم تدخل معه فى نقاش، فهى تعرف طباعه، وتعرف أنه لا يحمل للدنيا هماً، وتعرف مبدأه الذى ينص على اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب ، من أجل ذلك سكتت وتذكرت أنه إذا قل الزاد كان يحمل بيض الدجاج ونخال الدقيق ويقايض بهم بما يوكل .

من نتائج تلك المعرفة، كان لا بد أن تركب زورق الأفكار مرة أخرى وتتجه إلى طريق المرض، تدوسه، لتقارن بين حالته وما تحفظ من أعراض بعض العلل. .

مدت يدها لجبهته وجدت السخونة تأكلها، فنصبت طولها، ودبت يدها فى المشنة، لم تجد إلا ليمونة ضربها الجفاف، أخذتها ثم شرعت فى دعكها لتجرى فيها المياه، ما هى إلا لحظات ولانت، فقربتها من فمها ليتم شطرها إلى نصفين. أثناء ذلك، اختنق صوتها، غلبتها الدموع، فشهقت واهتز جسدها من الوجع،

fb/mashro3pdf

وتتابعت شهقاتها.

عندما انتبهت إلى ما يصدر عنها، كممت فاها بيدها، لكى لا يصل صوت نشيجها إلى الطريق، فيحسبه السائرون من وطأة الذل عليها...

وبدأت تدلك جبهته بنصف الليمونة، فى تلك اللحظات، عانقها الوسواس، ونفث سمه، ففرض السؤال نفسه:

(لم لا يكون داء أبى الركب قد حل بجسده..؟)

راحت تربط بين المرض وبين أعراضه، أيقنت أنها تتطابق مع أعراضه، ابتداءً من السخونة التى تسيط جسده، والتى لم تفلح مياه الزير الباردة فى إخمادها، وانتهاءً بالرعشة واصطكاك الأسنان.. لكنهاتعود لعقلها، تحكمه، تكتشف أن الذل لم يصرح بألم فى مفاصله أو عظامه، ذلك العرض المهم والدال على وجود الداء، فقط منذ دخوله، وهو يقفقف مرتعشًا، وأحيانًا يلمّ إحدى قدميه ويعود ويفردها.. يعلن بنفسه وبطريقة غير مقصودة خلوه من المرض..

ضرب إحساس الراحة قلبها، فخلعت عينيها من فوق جسده، وهمّت فى توزيع نظراتها فى فراغ المجاز، تعانق الأشياء القليلة المبعثرة فى أركانه، الباقية من شوارها: المبخرة التى تنفث البخور، فيتوزع العبق بين المجاز والزريبة، والطست المسنود على الجدار..

انتبهت إلى ما تقوم به، وأنه يعد إهدارًا للوقت، فأسرعت فى نزع عينيها من فوق المكونات التى تشتاق إلى لمساته.. وعزمت على ترك الهواجس، ومدت يدها وأمسكت بالنصف الثانى من

fb/mashro3pdf

الليمونة، وبدأت فى جرشه بسرعة غير عابئة للطعم اللاذع الذى راح يتسرب إلى جسدها، فيرتعش وينتفض، وحتى لا تكف عما تقوم به، الآن أغمضت عينيها، و قفزت إلى رأسها الحفرة الكبيرة المردومة بالجير ومنظر الجثث التى كانت ترمى فيها، وما كان يحيط بها من خوف وهلع، أن يلاقى كل واحد نفس المصير، هو الخوف إذن من تكرار الفجيعة، التى مازالت حاضرة فى النفوس التى فقدت الأحبة، وما زالت تلقى بظلالها، أيكون هو قد عاد يحمل نفس الظلال؟ وإن عاد هل يستطيع القلب الواجف القريب مما حدث، التحمل، واستقبال ما سوف يكون، بالقدر الذى تحمل ما كان، وهل من الهين أن يفقد المرء آخر شجرة تلقى بحنوها، تحمى من الشمس ووهجها، هل هذا ممكن..؟ .. كل هذا دار فى خلدها وهى مغمضة العينين، فجعلها تنتفض وتفض التزاوج بين عينيها، فتعود إليه بجسد يسكنه الدوار، فتشعر بالجدران المتهالكة وقد تلاطمت، وانهارت، ودفنت تحتها، وأخذت تردد:

-إذا جاء فلن يرحم الفلاح وأولاد الناس، ولا المتعلق بشباك ولى ولا بخانقاة..

سرعان ما تماسكت و همست شفتاها باسمه بحذر وخوف وقالت الطاعون.. سترك يا رب..

أبراج من رأسها طارت، فتقوض التماسك الهش الذى تتمسك به، فدست يدها تحت إبطيه، تبحث عن الفصوص التى تنمو والتى فى حجم حبات الترمس، لم تجد، فتفحصت رقبته، لم تجد،

fb/mashro3pdf

فتنفست الصعداء، وسندت رأسها بين راحتى يديها، وأخذت نفساً عميقًا، يساعدها على الهدوء..

بابتعاد تلك الخاطرة، هدأت نفسها وهجعت، وكفت عن الهرولة فى طريق الهواجس، وأمسكت بنصف الليمونة المجروش، ومالت عليه، سمعت همهمات كهمهمات المحموم، اقتربت أكثر، لصقت أذنها بفمه، سمعته يردد:

- عطشان يا أسيادنا.. سبيل يا أهل الحى..

ثم تأوه وصرخ:

- الرحمة يا ناس.. القمر محجوب.. والغيوم طال زمنها.. الرحمة يا ناس.

وقام وهى متشبثة به، وقع، فوقعت معه، تمدد، وطفح الريم من زوايا فمه، وهى تحته، يلفح وجهها صهد أنفاسه.

قالت عن تلك اللحظات لزهيرة:

(لولا أنه بجوارى، لقلت أنه اندس بين فرقة الكشاكة، فأخذه الوجد، وتاه معهم فى حب الله وآل البيت، لكنه عاد بعد لحظات وأسلم جفونه، فعدت لدعك جبهته بفص الليمونة، وأرجعت ما يصدر منه إلى السخونة اللعينة التى استوطنت جسده، لكن سرعان ما بدأ صدره يصعد ويهبط، وفجأة صلب عوده، وتسرب من بين يدى، سحب الغلقة وخرج)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٧)

تعود من شرودها . .

تجد الفتيل قد ذاب ، والعتمة تشابكت ورائحة البخور خفت هجمتها مما يدل على نفاد ما فى المبخرة من أعواد البخور . .

تفرد طولها فوق الحشية ، تطلب النوم ، يصلها صوت حوافر الخيل وهى تقترب ، تنكمش ، وتجتاحها مرارة الوحدة ، تملأ داخلها ، لإدراكها تبعات تلك الهرولة المقصودة فى جوف الليل ، نقطة فاصلة بين حياة وحياة تعلن عن نفسها فى صورة استعراضية ، هكذا تعودت أن تصفها ، وكما تعودت ، تعلقت بالآية التى ترددها فى تلك المواقف :

و جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون

fb/mashro3pdf

تقوم إلى الباب، تضع العارضة الحديدية خلفه، وتعود لتجلس فوق الحشية بذهن يطارد خيال الذل تنقب عن مكانه. بترديد السؤال. .أين يكون الليلة. .؟، السؤال لا إجابة لديها عليه، فلولا حضور البلاصية، لخرجت وبحثت عنه وسقته منقوع العمل الذى خطه بيديه الشيخ سيد كتكوت.

لا تعرف لماذا تثق به بهذا الشكل رغم كل ما يشاع عنه، هى نفسها شاهدة على محاولاته مع زهيرة، فكثيراً ما رأته واقفًا على رأسها يوم السوق، وهى تقرفص على الأرض، أمامها مقطفها، لا تنتبه إليه، رأته هى وهو يروح ويجيء وعينه على فلقتى عجيزتها.

ذات مرة وبينما يقوم بمتابعتها بعينين تأسدت فيهما الشهوة، لمح نائب المحتسب، مال على المقطف، خطف غطاءه وسألها بصوت عال:

-ما هذا..؟

زهيرة لم ترتجف، ولم يتحرك لها رمش عين، ظلت ثابتة، ومدت يدها، وبهدوء ذبت الذباب، ثم رفعتها قليلاً وأخذت من يده الغطاء، أسدلته على قطع الحلاوة المدفونة فى الدقيق، وزعقت فيه لتوقفه عند حده:

- وما دخلك أنت بتلك الأشياء، فهى أمر يخص النساء؟

رأت بعينيها: تغير حاله، انقلاب سحنته، وبروز البثور القديمة المنتشرة فى وجهه من أثار جدرى قديم، لكن الخبيث لم يرتدع، مضى فى خطته إذ لمح نائب المحتسب يتسمع، فقال إنها أشياء لم

fb/mashro3pdf

تتعود عليها نساء البلدة اللاتى يستخدمن الندرة .

-وما المشكلة فى الحلاوة؟

هكذا سألته زهيرة، فما كان منه إلا أن قال إنها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار. .

كلماته الأخيرة جعلت نائب المحتسب، يقحم نفسه، ويمد يده، ويتناول قطعة من قطع الحلاوة ويقول:

- المشكلة لا تكمن فى أنها بدعة، المشكلة فى كيفية معرفة النسب المكونة لها، فالندرة كما نعرف مسحوق يتكون من الجير والزرنيخ بنسب معلومة: واحد من الزرنيخ إلى عشرة من الجير.

وأكمل أنه لا بد من معرفة المعايير الصحيحة، حتى يمكن الحكم.

وسط دهشة الجميع تم اقتياد زهيرة لدار المحتسب فى حاضرة الإقليم..

دهشت يومها من فعل الشيخ سيد وزوجته تستعمل الحلاوة. .

هى نفس الدهشة، تغزو داخلها فى كل مرة تدفع له ليرى ريحة الذل، يدفعها حبها له ورغبتها فى دفع بنات الجن من أخذه منها.

تمد عينيها من بين فرجات الباب، لا تلمح شيئًا، فتعود إلى الحشية، تقرفص عليها. وبعينيها تلاحق الهاموش العائم فوقها، التارك آثاره على جسدها البض فى شكل دوائر حمراء متناثرة على ذراعيها، لم يفلح ورق الكافور المصحون فى إنهاء وجوده بسبب كثرة الدوائر..

fb/mashro3pdf

تنظر إلى قدميها، فتجتاحها أمواج من الحسرة، فتلعن القيد الذى جعلها تلزم بيتها، لتعاشر الوحدة، وهى التى تعشق الفراغ والشوارع الغارقة بالنور والضجيج، يحدث هذا أحيانا، بسبب وعكة تلم بها، كانت تضحك وتقول غمة وسوف تزول . ولا تكف أثناء ذلك عن جرد بضاعتها الباقية وتسمية الأشياء التى يجب أن تحضرها لبعض النسوة بناء على طلبهن، عادة يكون الحجب لمدة يوم أو على أقصى تقدير ثلاثة . . أما حبستها هذه الأيام وحده رب العباد الذى يعلم مدتها المرتبطة بوجود البلاصية . .

ترفع عينيها عن الحشية، تعانق المقطف المركون بجوار الزير، تعلم أنه يكون دائماً محط أنظار النساء، كانت تؤجل رفع الغطاء من فوق حنكه، كما تعلمت من زهيرة، حينما سلمتها مهام عملها، بعد زواجها من على شوشة، ومنعها من العمل بعد بروز بطنها، خوفًا على من فى بطنها، وافقت فرحانة أن تحل محلها، وما يرزقها به الخالق، فهو قسمة العدل بينهما .

وعت الدرس جيداً، فكانت تؤجل رفع الغطاء عن حنك المقطف لحين تجمع أكبر قدر من النسوة حوله وحولها، وتكون بقعة جلوسها فى السوق هى الأكثر ضجيجا .

تزحف نحوه، تجذبه إلى صدرها مغمضة العينين، تستحلب من رائحته المعفرة بتراب الطريق لحظات ترقب النسوة لبضاعتها التى تحمل فى كل مرة جديداً . قبل لحظات الفرجة، تسافر بلسانها إلى حاضرة الإقليم، تمر على الحوانيت تصف لهن : دلع النساء، مقدار

fb/mashro3pdf

ما يظهرن وما يخفين من أجسادهن حتى ضحكاتهن والكلمات التى يتبادلنها مع التجار، تصر على سردها، وأحيانًا تجسيدها، تسعدها تلك اللحظات المحرومة منها الآن ونظرات الحسد تطل من عيون النسوة، يتمنين أن يكن مكانها، وهن اللاتى يقلن عنها إنها بوجه مكشوف، لا تختلف عن رفيقتها، التى أورثتها مهنتها، وكذلك صوتها الذى يخط كلماته بنفس طريقة الرجال.

تقوم، تقترب من السدة، تمرر نظراتها عبر الفراغات، لا ترى شيئًا..

- سترك يا رب.

تقولها، وتسحب عينيها، تبرق فى لحظة ارتداد البصر صورة ألفتها: الجنود فوق ظهور الخيل، والمركوب السلطانى محبوس فى المهاميز التى تلمع بسقوط أشعة الشمس عليها، والحياصة (١) تحوط خصورهم، تشد العين لما تحويه من أحجار كريمة. تتخيل، فتكتم أنفاسها، وتتراجع حتى تلتصق بالجدار، وتصيبها انتفاضة، تخف حدتها بقدوم الذل، فبدخوله تشاغلت عما رأت بتعليق هلاهيله على حبل الهدوم، الذى قال بعدما استراح على الحشية:

- وجدوها هناك على مدور الساقية.

عاودتها الانتفاضة، وكتمت أنفاسها.

- مزقوا ملابسها، وكذلك جسدها، وقطعوا فردة من صدرها، ولما فرغوا من أكلها تركوا خنجراً فى قلبها.

بالكاد استطاعت أن تبلع ريقها، وقامت وهى تتخبط، سحبت

(١) حزام يلف حول الخصر يرصع بالأحجار الكريمة والفضة.

fb/mashro3pdf

الأكل من تحت الماجور، وضعته أمامه ثم انتحت بعيداً عنه، سندت رأسها بيدها وأغمضت عينيها، ظهرت لها المرأة مقيدة فوق مدور الساقية، عارية تماماً، تطالبهم بتركها، هم يقتربون، ويصرخون «نأكلك من أين يا بطة»، تلاحقت المشاهد حتى المشهد الأخير والذى فيه الجنود يتبادل الجنود معاشرتها، وكل واحد بعد أن ينتهى يصر على وضع بصمتة الخاصة، طعنة أو بصقة يتبعها بقطع جزء من جسدها، هم يفعلون ذلك وصرخاتها يرددها المكان. ...

واد خيبة عندما أعاد عليها الحكاية، استهجن ما يفعله الناس بصوت عال:

- الناس تعمل من الحبة قبة.

- ألم يحدث؟

- نعم، ولكن.

- لكن ماذا. .؟

- ليس بالكيفية التى سوف يتناقلها الناس .

نظراتها الدهشة تطوقه، فيواصل:

- كما يحدث كل يوم، بل ما حدث أقل بقليل، فهناك حفلات تتم جماعية، تكون النساء العاجزات وقودها، وبعيداً عن الحادث لم لا نتفق بأن الموت هو الموت، وأسبابه تختلف، واحد يموت فى فرشته، وواحد يموت غريقًا، وآخر يخوزق، و المرأة تموت بالبلاصية؟ فلا عجب ولا غرابة مادامت فى النهاية ماتت. وما الضير وكلنا أموات؟

fb/mashro3pdf

(٨)

غيرت من وضع جلوسها، سحبت المقطف، ركنته بجوارها، مسحت البيت الخالى، وها هى تعود، تهز رأسها وتقول بحسرة: لك فائدة ياذل.

تقول تلك الكلمات، وهى تعرف أنها قد تقلب عليها المواجع، فتجعلها تعيش ليلة وهى مسهدة، متقلبة على جمر الرغبة، التى إذا ما دخلت فلن تخرج إلا بعد أن تحيل جسدها إلى رماد، يسهل النفخ فيه وتبديده، تعرف ذلك وتعرف أيضا أن لا مهرب لها من الخوف المتشبث بها إلا النوم. تريح رأسها وتغفو، وتتوالى المرئيات..

هى فى السوق، أمامها المقطف، مكمم حنكه بغطاء، عيون النسوة تشد الرحال إليه، يصنعن حولها حلقة، ترفع الغطاء كالحواة، تظهر قطع صغيرة مكورة مدفونة فى دقيق ناعم، يفط

fb/mashro3pdf

الاستغراب فوق الألسن، ويُترجم إلى سؤال وحيد:

- ما هذا؟

تقول:

- عجينة.

- نعرف أنها عجينة، فما هى هذه العجيبة؟

- من السكر والماء والليمون.

تدس يدها، تنتشل واحدة، تمررها أمام العيون، تمتد بعض الأيدى، يتأكدن أنها لدنة، وكذلك أنها لاصقة.

- فيما تستخدم؟

- فى النظافة.

تعود من غفوتها على وقع دق حوافر الخيل، فتنكمش، وداخلها يقول ملعون فى كل كتاب يا شيخ سيد . وترهف السمع تتابع رمح الخيل. .

- يا رب سترك .

تقولها، وتميل برأسها، تلمح الذل بين الخيط الفاصل بين اليقظة والنوم، تطبق جفونها. .

تراه يدلف إلى البيت، قد زال عن وجهه غبار المجذوب وحل محله انبساط أهل المرح والسرور، يلبد فى حضنها، تهدهده هدهدة الطفل الذى تريده، تقول له طالت غيبتك ، يبتسم ولا يرد، فترفع وجهه، تجعله فى مواجهة نظراتها، تمد يدها، تداعب لحيته وتقول: لقد طالت. وتتركه وتقوم، تخرج من المقطف مسحوق الجير

fb/mashro3pdf

والزرنيخ، تأخذ حفنة، تعجنها كما يجب، وبهدوء تريح العجينة على لحيته، تتركها بعض الوقت ثم بالماء تنظفها، وتقول وهى تبتسم:

- هذا أفضل، فقد كانت مثل نبات الحلفا الطالع فى أرض السلايح.

يريح خده على صدرها، فتداعب وجهه الحليق بأصابعها، وتسقط بنظراتها، تلمح المزق المطرزة بها عباءته، الغائب لونها، يظهر منها جسده المقروح رغم ما به، تنبهر عيناها بالجسد القابض على صحته وعافيته، و بالوجه المضرج بالدماء، وبالشعر النافر من طوق العباءة، تبتسم وتقول:

- تعبت من معاملة الناس؟

- هم الذين أتعبونى.

- أتفكر فيهم؟

- وكيف لا أهتم بحالهم، وكما ترين كل واحد اشتد عوده يعمل عصاه فى مؤخراتهم.

تبتسم وتقول:

- لم تتغير، أنت كما أنت تحمل فوق عاتقك همهم حتى وأنت مطارد منهم.

- الناس بالناس.

- لكنهم يطاردونك.

- هم أيضاً مطاردون.

fb/mashro3pdf

- .....؟

- بالجرى وراء لقمة عيشهم، وتدبير المكوس والغرامات .

تمد يدها، تكمم فاه، لعلمها أن كلماته ذابت، وتبخرت، كأنه ما قالها، وكأنها ما وصلت لأذنيه، يحدث هذا تحت ضراوة بزوغ الحلم، يسقط داخلها كمياه الفيضان، التى لا يصدها أى سدود أو جسور، يكد أهل البلدة تحت وهج الشمس وعين كاشف الجسور فى تقويتها، فى لحظة تخور قواها وتسلم جسدها لضغط المياه، وتنهار.

تخاطبه نظراتها المحملة بالرغبة:

أنا هنا أرض ممهدة، مد يديك، قلب تربتها، عرضها لوهج الشمس، لتقتل كل الوخم الساكن بقلبها، لتبذر بذورك، هذا هو المطلوب منك، دورك كما رسمته لك، فقط مد يديك، وأنا فقط أضمن لك أن يطاوعك جسدى المغلق على الناس أجمعين، لك وحدك سوف يكشف كنوزه، خذ منه ما يكفيك، إقطاعك هو، سوف أحرره لك، لتنفرط حباته، أعرف أنى لم أر فى عينيك نظرات تدل على الفرجة، ولم أعدهما سيخين، يندبان فى أديمى .

فهذه هى لعبتى مارستها معك سراً، حينما قررت أن أجعلك الطريق البديل لتحقيق حلمى. رأيتك فى أرض الجرن وأنت تضع همك كله وضعته فى المذراة بها تفصل الغلة عن التبن، سمعتك تقول:

فردت قلعى علشان أرحل

خانتنى الريح.

fb/mashro3pdf

ودرست جرنى
طلع تبنى بلا غلاه

لا أعرف لماذا تخيلتك ساعتها كأنك، تصارع شبحًا أو تقاتل عدواً مجهولاً لا يظهر إلا لك، يومها تخطيت المسافة التى تفصل بينى وبينك، برزت لك، سألتك عن واد خيبة، لم ترفع عينيك عن كومة التبن، ولم يحرك جسدى لتمرر عينيك علية، لتشبع جفاف يومك بطراوة- بالطبع -لا تجدها عند أى صبية من صبايا البلد، ساعتها انقلب السحر على السحرة، قبلت جسدك الذى كان ينفث عرقًا، يتعانق مع تراب التبن ليصنع طبقة تراكمت فوق غابات الشعر المزدان بها صدرك وساعداك، بنظرة منك مسحت الأفق لمحت كاتب الحوالة يحث خطاه نحونا، فطلبت منى الانصراف خوفا علىً من تصرفاته، يومها قلت لنفسى من يستنزف قواه بهذه الصورة، فلا خير لديه . الحق أنى صارحت زهيرة بهذه الخاطرة، ضحكت على، وقالت:

- يا «ريته» يشقى كل يوم، ويكون من نصيبك .

استغربت، فعاجلتنى قائلة:

- فى الليلة التى يكون فيها على فى هذه الصورة، يجعل النوم يفارق عينى، وأحسبه فى تلك الليلة يفرغ غلاً مكبوتًا داخله.

تعاودها دقات حوافر الخيل، فتعود مفزوعة من دنيا الحلم وهى تحاول حضن الفراغ، فتطيل النظر حولها وتهتف:

- يا رب سترك.

fb/mashro3pdf

تعود وتغمض عينيها، يظهر لها على شوشة..

- رأيت الذل.

- الكل يراه.

- هذا إن كان لقاءً عادياً، لا يتجاوز ما يفعله من أفعال معتادة، فاليوم رأيته فلم أصدق نفسي، اقتربت منه والشمس تصبغ قمم النخيل باللون الأحمر القاني.. فسمعته يقول:

عطشان فمن لي غيرك، مدى يدك لبدني الناحل ليستعيد عافيته، واجعليني في مرمى نظراتك لتتفجر مسامي وتنضح كل السم المستوطن فيه، وبعد أن أولد من جديد، قربي ثغرك، لأتذوق شهد ترياقك، وبعد ذلك يكن ما يكون.. فاظهري.. قد راج سوق الهوى داخلي.. من جانبي أظهرت لك الانقياد منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها أن لي عقلاً.. فناظريني ولا تخاصميني ورديني إليك، أغير بين يديك عادات يومي...

وأسلم نفسه لبكاء مستمر، أشفقت عليه، وفتحت له قربة الماء، فأخذ يعب منها حتى سال الماء على صدره وأطلق شهقة عرفت منها أنه شبع، فرفعت حنك القربة عن فمه، وأسند رأسه على جذع نخلة وأخذ يكلمني:

كدر ما رأيت منها ورد يومي وبدد كل ثابت لدى قربها من كل عابر، من أجلها عانيت، قدمت الحلوان، جسدي يكفي، شوقي يكفي، قربي زادها ابتعاداً.. فدفعت أكثر.. سهرت الليالي.. وعذبت جسدي.

ولم يكمل فقد أصابته رعدة، وارتعش جسده، وسقط جذعه على الأرض ونام.

fb/mashro3pdf

تركته وقمت، وأنا فى قمة الحزن مما رأيت من الحال الذى أصبح عليه، لدرجة أنى لم أنتبه كثيراً للطريق وما يحدث فيها، حتى كدت أفقد حياتى تحت خيل الكاشف التى تمرح فوق الجسر بدون رابط أو مانع، إلا أن المهاميز الفضية التى تضم أقدام المماليك والحياصات المزدانة بها أوساطهم والمرصعة بالأحجار الكريمة ضوت مع وهج الشمس فخطفت عينى فانتبهت لهم وحدت عن الطريق.

مال علىّ واد خيبة وكان فى يده بعض العتق، فرفعنى وأخذ يرقص فرحًا بما فى يده، ظهر لى كالأراجوز، عقدت مقارنة بينه وبين الذل وهو يلعب اللبخة والعصا طيعة فى يده يكر بها على خصمه، تناله ضربات الذل. . .

أيقنت أن الفرق شاسع بينهما. . .

من باب تقصير الطريق سألته عن مصدر المال الذى معه، أشار إلى ركب المماليك الذى لم يكن يظهر منه إلا الغبار:

-منحها لى رئيس الركب .

- ما المناسبة؟

- يحملون رسالة من الوالى تبشر بقدوم نائب السلطان إلى الإقليم .

تُمسك عن تقليب عينيها فى المرئيات وتوقن بقدوم أيام سوداء. تود الآن لو كانت طائرا لفردت جناحيها وطارت لمكان الذل النائم فيه، وسقته المنقوع فمن يدرى قد يعود إليه رشده فلا يحدث له ما حدث فى يوم النيروز. .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٩)

منذ أن فارق على المجلس والعجوز والقريللا، وعاد إلى الكوخ الذى جهز له ولأسرته، والصمت يتلبسه حتى كاد أن يحيل جدران الكوخ إلى لحد محتقن بالموتى، فور دخوله عزم على أن يفاتحها فى أمر مد مدة الإقامة حتى تزول الغمة، لكنه تراجع تحت ضراوة القتامة السادرة على وجهها، لكنه تمسك بتلك الفكرة وقال لنفسه: لا بد من حيلة فأنا الحاوى وجرابى به الكثير من الحيل، فلن أعدم حيلة، بها أجعلها تغادر شاطئ الصمت، وتنضم إلى، تقيم معى حواراً فى أمر يخص الصغيرين..

تبرق الفكرة، فيزحف إلى الحشية الممدد عليها الصغيران، ومد يده، يداعب جسديهما، فلم يتحرك أى منهما (هنا برقت الرجفة فى عينى زهيرة التى شهقت شهقة خوف لم تصل لسمع على،

fb/mashro3pdf

لكنها استردت أنفاسها فى اللحظة التى أراح فيها ظهره للجدار) . . .

فى وضعه الأخير أطلق عينيه تجوبان الفضاء الضيق للكوخ ثم مر بسرعة على زهيرة، واستقر فى النهاية على الصغيرين وبدأ الحكاية . .

كان يا ما كان يا سعد يا إكرام فيه حاوى ثعابين ركب غليون البحر، وفى ليلة كانت بلا قمر مال ريس الغليون على موردة وقال: هنا نبيت الليلة . . باتوا ليلتهم، وفى الصباح مضى الغليون، وبقى الحاوى الذى ظل تحت شجرة سنط نائماً وعندما استيقظ لم يجدهم قال: لا يهم . . وأرسل عينيه يبحث عن مدخل يؤدى إلى القرية، وبعد بحث وجده، كان مدقًا على جانبيه تستقيم نباتات مورقة، وأشجار سنط ولبخ ونبق متعانقة القمم، وتحت هذا السرادق الأخضر سار حتى نهاية المدق، الذى أسلمه لجسر تتوزع على مبعدة منه جماعات من الفلاحين الذين يقومون بتقويته، سار عليه و عينه على البيوت التى لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع أبراج الحمام والتى تتراص بجوار بعضها، لتخترقها مجموعة من الطرق الضيقة والملتوية، ويتفرع من تلك الطلاق مجموعة هائلة من الأزقة والدروب غير النافذة والتى يقوم على كل درب وزقاق بوابة ضخمة تغلق بعد العشاء وتفتح مع آذان الفجر (هكذا عرفها حينما طاب له المقام بها) . .

فى منتصف الطريق اعترضت طريقه تاية ، أقترب منها وسند

fb/mashro3pdf

ظهره على جزئها الخارجي، وبدأ يعيد ترتيب حاجياته: الثعابين والزمارة وبعض ملابسه، وجراب به بعض الكسر الجافة، ..وبينما هو على هذه الحال إذا بامرأة تقف فوق رأسه، وقد بسطت أمام عينيه جسداً ملفوفًا رقيقًا غير مفرط فى السمنة، يتصدره نهدان بارزان، مسجونان تحت قميص واسع الأكمام، يحدد ما تحته ويقسمه..

أمسكت الدهشة لسانه، فظل صاحبنا مقيداً عينيه عليها، يشبع نفسه التى لم تر خيال أنثى منذ غادر حاضرة البلاد، وصام عن ارتياد بيوت بنات الخطأ والخواطى.. إلا أنه تحت إلحاح نظراتها استعاد نفسه المخمورة، وارتدى ثوب الوقار.. هذا المظهر جعلها تقترب منه، وتثق فيه وتسأله عن سبب جلوسه فى ظل دارها..

كلمة الدار أطلقت شياطين الضحك لديه، وكذلك أطلقت عينيه لتلقيا نظرة على المكان، فلم يجد إلا التاية المكونة من طواف مصطفة فوق بعضها من الطين مكونة جدارين، أما الجداران الآخران فهما من البوص المجدول بالجريد الناشف، وكل منهما مليس بالوحل ومسقوفة بطول مجدول من البوص والجريد..

وهو يسترد عينيه لمح كرسى الولادة.. وسألها عن اسمها، فقالت:

- زهيرة البلانة.

- بلانة؟

- وماشطة.

fb/mashro3pdf

- وماشطة؟

وأشارت إلى الكرسى وقالت:

- وقابلة ودلالة.

ولأنه يجيد نظم العبارة وزخرفتها، وإلحاق مليح الكلام بها قال لها:

- من يراك يحسبك خاتونًا تجلس على دكة الحكم.

قال ذلك ونظر إليها ليرى وقع الكلمات عليها، فرآها كأنها شطرت إلى نصفين كما تشطر الكعكة المحشوة بالسكر والعجمية.. وللتخلص من عينيه، تركته ودخلت التاية لتحضر له الماء.. وهى بالداخل قرر القعود فى القرية متذكراً الناس حينما سألت جحا عن بلده فقال: التى بها زوجتى..

تناول منها الماء، فلما ارتوى، حمل جرابه ومضى صوب البلدة، وعند أول نفر من أهلها حط وسطهم، أخرج ثعابينه على الأرض، وراح يراقصهم بزمارته، فتلوت وتقصعت بحركات سلبت الألباب، ومن هول الدهشة التى رسمتها الوجوه، أمسك بالكوبرا، وقربها من فمه، مجسداً أمامهم قبلة الحياة، عيناه ساعتها كانتا بعيدتين كل البعد عن الخطر المحدق به، بل كانتا على الجيوب وما تحويه من عتق، وما أن رحل النهار حتى كان مع صاحبنا حفنة من العتق اشترى بها رطلين من اللحم الأحمر، وخبز وجبن، وعزم على الرحيل، فقصد الطريق المؤدية إلى الجبل، فى منتصف الطريق شدته دروة من الطوب اللبن، فدخلها بعدما خطا بقدمه اليمنى، أراح الجراب.

fb/mashro3pdf

كانت الظلمة شديدة، ففتح جراب الكوبرا، فقذفت فور خروجها جوهرتها، التى أضفت على المكان ضوءاً، ولما حرر بقية الثعابين، أصدرت فحيحًا قويًا، جعله يخرج من هدومه ويرقص بينهم عاريًا، فلما نال منهم التعب، تمددت الثعابين على مصطبة بطول الحائط، وهو استلقى على الأرض، لم توقظه إلا الشمس التى دغدغت وجهه، فقام صاحبنا واعتلى نخلة كانت قريبة، قطع سباطة، نزع منها البلح وضم شماريخها الخاوية بحبل وقام بكنس الغرفة وقال الآن أصبح لدى بيت. .

وفتح جرابه فوجد به ما يكفيه يومه، فقال اليوم راحة .

وفى يومه الثانى لمح رجلاً يقبل سعيداً، استوقفه وقال له: ما الذى يسعدك.

قال الرجل لصاحبنا إنه يبيع الشيح الذى هو للبيت مليح، وإنه لم يبع قبل ذلك ما باعه اليوم.

وعندما سأله عن السبب قال الرجل إنهم يقولون إن البلدة لم تنم منذ ليلتين بسبب الثعابين التى ملأت البلدة، ومن العجب أن البيوت التى ضجت هى بيوت أولاد الناس.

وتركه الرجل ومضى، فجلس فى البيت، وأخذ يفكر فى أمر الثعابين، فقام إلى قطع الجير الحى التى كانت معه والتى أوصى بها أستاذه خوفا من تأسد الثعابين، وأخذ يضعها بين قطع اللحم التى راح يلقى بها للثعابين والتى ما إن ابتلعتها حتى تفجرت، ولم تبق إلا الجوهرة التى ما إن امتدت يده إليها حتى تحولت إلى رماد، فقال:

fb/mashro3pdf

ما بقى فيه الفائدة. فشرع فى جمع دهن الثعابين فى قارورة كبيرة، كل هذا وصاحبنا لا تغيب صاحبة التاية عن خياله، التى كلما ضاقت أمامه تذكرها وقال: هى تكفى. . .

وتوتة توتة.. فرغت الحدوتة. . .) . .

ينتهى ويعود ويعانق ظهر زهيرة الظاهر له، يود لو قام وطوقها، لكن كيف وهو يعرفها تمام المعرفة وأنها لا تعطى إلا إذا كانت هى راغبة، لكن لا بد من طرق الباب، هكذا يقرر، فيقوم ويدنو منها، تجفل هى من لمسته، وتقول بغضب مكبوت:

- ليس وقته.

يقترب راغبًا فى المضى فى جس نبضها:

- ومتى وقته؟

- عندما يحين.

- وحتى يحين ماذا أفعل أنا والحاجة قاتلة. .؟، وسد النفس أمر لا يجلب إلا الغم.

- وهل رأيت غمًا بعد؟!

-ماذا تقصدين. .؟

- أقصد أنك منذ وقت وأنت تردد حكايتك بصوت قد يكون سمعه من بالخارج، ولم تسأل نفسك لماذا لم توقظ الطفلين. . . إذن فاسمع لتشاركنى الحمل. .

وراحت تتكلم وهو غير مصدق. .

لا تدرى إن كانت بما فعلت قد خففت الحمل الذى أثقل كاهلها

fb/mashro3pdf

أم أنها قد صعبت الأمر على نفسها وبدلاً من تطويق السر فى صدرها وتحمل تبعاته لوحدها، ها هى تحمل هم على الذى تجهل تصرفاته بعدما عرف.. فهى لم تأخذ فى الحسبان فقد على لحياة عادية فى كنف أسرته، بعدما رأى أباه يقتل وأمه تساق لحفلة الليل التى ما إن انتهت حتى كانت جسداً بلا روح، فأصبح يبتعد عن أى خطر قد يسبب له ولو ضرراً صغيراً، لذلك ما إن تعلق بها حتى هجر مهنته القديمة وأصبح لا يمارسها إلا فى الأرض البور..

هى نفسها رأته بعد أن سمع منها، يلوذ بالصمت ولا ينبس بكلمة واحدة توحد رب كريم، مكتفيًا بالتجول بعينيه، لا يجعلهما على شيء محدد، ولما طال سكونه تركته، حتى إذا ما طلع النهار وتبين الخيط الأبيض من الأسود، قامت إليه ولمست كتفه، فأحست برجفة خفيفة تسرى عبر جسده، جعلتها تقول بحب:

- الشمس فرشت البراح، أفلا تخرج على رزقك؟

فلم يرد، فخاطبته بلهجة كلها ندم من فعل ذنبًا:

- قلت إن الهم لا بد أن يحمله اثنان، ويظهر أنى قد دست فوق أديم طريق لا يحق لى أن أدوسه..

بدون كلمة مد يده إلى جرابه، تفحص ما به من دهان الثعابين وأعشاب الشيح وحلف البر والدمسيسة، والششم والجنزارة، وبين كل هذا سحب الزمارة المعلقة فى جدار الكوخ ودسها بين الأشياء التى تمم عليها، ثم فرد طوله، وخرج..

وقفت فى حنك باب الكوخ ترقبه وهو ينهب المدق الخارج من

fb/mashro3pdf

رحم الجبل والمنتهى ببدايات البلد والمار بالأرض البور، ولم تدخل إلا بعد أن لفظه الأفق، وأصبح كنقطة صغيرة سرعان ما تلاشت، وأصبح كأنه لم يسر فى الطريق..

تعلم الآن أنها لم تر دموعه، فرجولته تأبى ذلك أمامها على الأقل خوفًا أن تلمح لحظات انكساره، لكنها تعلم أنه عندما وقف تحت شجرة السنط العجوز فى منتصف المدق، قد يكون فك حصر عينيه، وأجهش بالبكاء.فهى لا تنسى شكله فى اليوم الذى وجدوا فيه جسد مريم بنت عطية، وكيف أنه قال إنها حادثة عادية فى زمن غير عادى.. ثم انفرد بنفسه خلف الدار، ولمحته وهى تلم الدثارات المفرودة على الجدار الخلفى الواطئ، يبكى، أجلت ما كانت تقوم به، وانكفأت عليه، واحتضنته، فقال بصوت مخنوق إنه عندما رأى الخنجر المرشوق فى قلب مريم، تذكر أمه وهى تنظر له نظرتها الأخيرة وأحدهم يدفعها لخيمته، نظرة كانت تقول وداعًا، لم ير وجهها بعد أن سلبوا منها حياتها لكنه رأى فى وجه مريم توسلات، ربما كانت تقصد بها مغتصبيها أو تقصد رجال البلد، تستحلفهم بدمها ألا يضيع..

fb/mashro3pdf

(١٠)

يدوس على بداية البلدة، وصورة وحيدة تخايله، صورة شاركت زهيرة فى حفرها داخله بسبب عدد المرات الكثيرة التى سردتها عليه، مع الاسترخاء- دائمًا- تبرز تلك الذكرى البعيدة، حينما رافقت الكرسى إلى أحد البيوت فى أيام استحقاق دفع خراج الأرض، جمع صاحب البيت كل ما فى البيت، باع الصامت والناطق، فوجده قليلاً لا يفى بما عليه، خرج وطرق الأبواب، فعاد كما خرج، وقال الكل فى الهواء رفقة. .خلفه جاء رجال نائب الدم، أخذوا أحد أبنائه وقال إنه سوف يسترده إذا سدد ما عليه. .

جلس الرجل يمضغ الحسرة، وبحزن راح يرمق الكرسى الموضوع أمام الدار وفمه يردد:

- نأتى بهم ليرهنوا، فإذا عجزنا يباعون.

fb/mashro3pdf

هتفت فيه عجوز البيت :

- لكنهم دفء القلوب .

- وهم الطوق الذى يلف حول عنق الواحد منا .

(طوق من مسد يا على .. عليك التخفف منه و إلا خنقك وجعلك كالمتقلب على الجمر ، تطلق آهاتك ، والجرح أبداً لن يندمل ، سيكون جرح العمر الذى لن ينفع معه دواء النسيان ولا حكم الأيام) .

كلمات تنداح بداخله كالموج المتلاطم ، الذى يطلق زبده فى موجات عالية ترتفع وتهبط لتموت ثم تعود وتولد من جديد ..

يعرف أن ما قالته زهيرة حقيقة قد يصعب على العقل أن يصدقها ، لكنه فى نفس الوقت لمس الصدق فى كلماتها لتضيف إلى خوفه من اليد التى تمتد وتلتقط أحدهما ، خوفًا آخر أشد على النفس وخزاً ، فهما الآن على مسافة قصيرة من الأيدى المتهورة التى تملك إنهاء حياتهما بحركة رعناء ..

- يا على ..

نداء ، يجعله يفارق بحر الفكر ، ويلتفت فى الاتجاه الذى وصله منه الصوت ، يجد عطية يقبل نحوه مهرولاً ببطء مستعينًا ببقايا عافية ما زالت تستوطن جسده تعينه على جلب الرزق لزوجته وأمه العجوز ..

- صباح الخير يا على .

- وأين هو الخير يا مقدس ..؟ !

fb/mashro3pdf

- موجود يا ولدى.

- دلنى عليه.

- فى القلوب يا على.

- كان حتى الأمس، أما اليوم فقد رحل بحلول البوم.

- وكم من بوم حط، ثم رحل، فلا تكن منساقًا وراء تلك الروح الهدامة التى أحسها فى كلماتك، وإياك من تملكها فيك، حتى لا يدنو الذئب من الغنم.

يهم على أن يفتح قلبه لعطية، فهو من شارك فى تربية زهيرة، ولا خوف منه على السر، لكنه يتراجع تحت ضغط ما قالته له زهيرة وطلبها منه أن يتكتم الأمر حتى يجدا للمشكلة حلاً مناسبًا..

ربما هذا أحد الأسباب التى جعلته يمسك لسانه، أما السبب الثانى هو وجه عطية الذى تخلص بعض الشىء من تجهمه الذى صُبغ به بعد رحيل مريم، والذى ينطق الآن بفرحة، تترجمها شفتاه:

- أتعرف أنه بالأمس ومع قدوم البلاصية، شب الهرج والمرج فى بيت الكاشف، ومن العجب أن الجنود انطلقوا خلف من سبب ذلك الهرج فلم يمسكوا بهم.

- أهم من العياق. .أم من العيارين اللصوص؟

تتسع ابتسامته:

-فلن تصدق لو قلت لك.

- لم..؟

- لأنهم ليسوا ممن ذكرت.

fb/mashro3pdf

- إذن فهم ممن أوجعتهم المجاعات فقصدوا حواصل وصوامع الكاشف، فالجائع إذا عض الجوع بطنه تحول إلى كائن لا عقل فيه .

- لأريحك فهم لا ينتمون إلى أبناء جنسنا، فهم من القطط .

النسمة الصباحية الهفهافة تتحول إلى صهد، يلفح وجه وداخل على، تدفعه تلك السخونة إلى أن يسأله عن أصل الحكاية لكنه يؤثر التأنى خوفًا من أن يرتاب فيه عطية، فهو يعرف أن الحكاية من طقطق للسلامة عليكم عنده كاملة، قد تصل لحد اليقين المستمد مقوماته من كثرة البيوت التى دخلها منذ أن غادر حارة النصارى، لكى يصلح عطبًا ما قد يكون أصاب أحد الأبواب الجريد، والتى هى كثيرة الشكوى من الغلقة والضبة، أو قد تكون استراحات قصيرة لا تتجاوز المدة التى يستغرقها دقه لمسمار فى رجل طبلية أو تسويته لهراوة حتى تدخل مقدمتها فى حلقة فأس..

وكما توقع ها هو عطية يستأنف الكلام لوحده:

- ظل الكاشف فى بهو قصره، عاريًا لا يستر عورته إلا سرواله الحرير، يصرخ بين نسائه، وجواريه، والطواشى الموكل إليه مهمة الاعتناء بالنساء التى يقال إنه يجامعهن كلهن فى ليلة واحدة وهن فى غرفة واحدة، قد لا تصدق، و لكنها حقيقة، فوجبته لا يغيب عنها لحم الضأن، فى زمن لا يجد الناس خبز الذرة بمذاقه المر، المهم أنهم يقولون إنه ابتدع لهن طريقة جديدة، علمته إياها جارية رومية، طريقة تعتمد على إيصال كل واحد إلى ذروة النشوة بدون أن يتدخل هو، الذى يظل يتفرج عليهن وهن يطفئن نيران بعضهن،

fb/mashro3pdf

فى تلك اللحظة يقوم ويمسك بكل واحدة، فلا تأخذ فى يده إلا لحظات يوصلها خلالها إلى عنان السماء..

وكأنه استشعر أنه طرق طريقا غير الطريق الذى كان لا بد له أن يرتاده، فاستدرك، وقال:

- دعنا من تلك السيرة المقرفة، ودعنى أقول لك إنه فى اللحظة التى كان يعاشر إحداهن، اقتحم عليه الخلوة قطان، فرمى أحدهما بأقرب شيء كان قريباً منه، تعرف ما هو؟.. سأقول لك.. كان سروالاً أحمر، يخص زوجته التى كانت تأن تحته، وعندما لم يرتدعا، اقترب منهما، فهجم عليه أحدهما، خمشه فى وجهه، فصرخ، وأخفاه براحة يده، فأخذت زوجاته يطاردن القطين، فلم يستطعن الإمساك بهما، وفى إحدى المطاردات، خطف أحد القطين السروال الأحمر وقفز من الشرفة، ولحق به القط الثانى.. هذا ما جعل الكاشف يرسل البلاصية خلف القطين، لم يهمه إلا السروال الأحمر الذى من أجله استيقظت البلدة كلها ولم تنم حتى طلوع الصبح..

بدأ صوت على يحبس، وعطية يصف الهرج والمرج الذى أحدثه البلاصية فى البلدة، وما نهبوه من ممتلكات مثل هجومهم على بسيط الحبال، وأخذهم ما عنده من حبال وحجال، استعداداً لأحكام وثاق كل ما يقع فى أيديهم من دواب أو من متعلقات خفيفة الحمل..

أذنه مع عطية بينما عقله يعيد ترتيب الحكاية، وعيناه على

fb/mashro3pdf

سحنة محدثه، التي اكتحلت بدماء الحياة، وكأن ثلاث سنوات لم تمر على رحيل مريم، وكأن زوجته دميانة لم تنته من طقوس حزنها، حتى كلماته المضمخة بالأمل، تناقض ما وطن عليه نفسه بالتزامه البيت بعد غروب الشمس لا يغادره إلا من أجل الشديد القوى..

لا بد من مطاردة كل هذا وسؤاله السؤال المهم، هكذا يقرر:

- إلى أين مضت القطط..؟

- الناس تقول إن الجنود، طاردوهم خارج حدود البلدة، وعند الأرض البور، فقدوا ظلهما..

يدق قلبه دقًا عنيفًا، فالأرض البور كما يعرف، هى متاهة مسكونة بكل أصناف الكلاب الشاردة، الهادئة، والتى بها سعار، وهى وكر لأجود أنواع الثعابين التى يقصدها ويستخرج أحدها بزمارته، يمارس معه لعبته المفضلة، وبعد الارتواء، ينهى حياته بتهشيم رأسه على أول حجر يقابله ثم يودعه جرابه، مؤجلاً سلخه، واستخراج دهنه حتى عودته إلى البيت...

تلوح المفارق، فيستأذن عطية، ليأخذ طريق السواقى، بينما على يسلك طريقه المعتاد، المؤدى إلى السوق، وهاجس الفقد يقترب منه، فبقربهم من الأرض البور، اقتربوا من البيت..

fb/mashro3pdf

(١١)

(انفصلت عن نفسك فى تلك اللحظات التى جمعتك مع على ، وعلى غير العادة، كان وجهك منبسطًا، ورنة غبطة كانت ظاهرة، أكل هذا لأنك انتهيت من المدور. .؟، أم لأنك مازلت تعيش فى أحداث الليلة الماضية. .؟.ربما.. وربما بما فعلت رحت أرسخ لحياة جديدة، بعيدة عن الخوف الذى لم يبرح قلبى منذ ذلك اليوم الذى رأيت فيه مريم جسداً مشبوحًا على مدور الساقية، والخنجر فى قلبها، والدماء تغرق جسدها، وإفرازاتهم متناثرة على الجسد الطاهر، وعلى لحم المدور. .)

بتلك الكلمات يحدث عطية نفسه وهو يفارق على ، وها هو يحاول إسكات ذلك الصوت، ليفسح لما جرى فى الليلة الماضية المكان ليطيب له المقام، فيستحلب كل دقائقه ليعينه على قطع

fb/mashro3pdf

المسافة الباقية ليصل إلى أرض السواقى.

الحدث دار فى الغرفة التى حرم على أهله دخولها، وقال لهم إنه مهما حدث فلا يقترب منها أحد.. فيها يقضى الجل الأعظم من الليل، وحيداً، لا يؤنسه إلا الفتيل المغموس فى كتلة هائلة من الدهن الذى يشتريه من عبد الحفيظ السكى القصاب . . .

هى مملكته التى استحوذ عليها واستحوذت عليه، ولا تملك دميانة من قوة لتقتحم عليه تلك الخلوة..

بعد أن تبادلت دميانة حديثًا موجزًا مع عجوز البيت، تم فيه إقرار ما يجب عمله من طعام اليوم القادم الذى كانت الغلبة فيه للعصيدة.. دخلت حجرتها وكعادتها اتجهت إلى صندوق ملابس مريم، فتحته ودست يدها فيه، وراحت تستخرج أشياءها: الطرح، القمصان، وأدوات زينتها التى اشترتها لها من القيسارية، وكذلك ألقت نظرة على بعض لعبها المحتفظة بها فى جوف الصندوق. أخذت كل هذا فى حضنها، تشممت راحة مريم وحيدتها التى كانت محط أنظار كل الأهل، وتحت رعاية زهيرة التى اشترت لها أول قرط سكن فى أذنيها..

فى كل ليلة كان يراها عطية تفعل ما تفعل، كان يطالبها بالصبر، الذى لم يكن يقدر عليه، فكان يفنى وقتًا كبيراً بالقعود بجوار المدور الملطخ بدمها، لم يسكته إلا الذل الذى كان يجلس معه طوال وقت قيلولته، وذات يوم رفع الذل يده، تناول البلطة، تقدم من المدور، ضرب سطحه بضربة قوية، سكن سلاح البلطة فى

fb/mashro3pdf

خشبه، احتاجت لجهد كبير ليخلعها، ويعيد الكرة لكن بقوة أقل، انتزعت تلك الضربات ابتسامات من عطية الذى كف عنها تحت وطأة نظرات الذل الحاسمة، وقام وأمسك بالبلطة الثانية وكما يفعل صاحبه، فعل هو، ولم يعد يسمع إلا دوى الضربات التى امتزجت بشهقات الاثنين الناتجة من بكاء مكتوم الصوت.

ما كانت لتستمر تلك الفعلة هكذا بدون أن يعرف هدفًا لها، فكف عطية ليمنح فرصة للذل كى يفصح عن الغرض من كل هذا، فهم الذل ما كان يدور فى رأس عطية، فوقف عن ضرب المدور، وجرى بعينيه على الأرض الرخوة، فوقع نظره على خازوق يطل منه سنه، فمال عليه، انتزعه، وأزال عن سطحه الطين الملتصق به ثم وجعله أمام عينى عطية بعض الوقت، ثم رمى به فوقع على الأجزاء المنفصلة من المدور، وزعق فيه:

- استعد..

مع مغيب كل يوم راح عطية يحمل الأجزاء التى يقتطعها من المدور، حتى كانت آخر القطع، رد الباب وقال لأهله: ممنوع الدخول..

وطن نفسه على البقاء بعض الليل فيها، يشذب القطع، يحولها إلى خوازيق ونشابات، والأجزاء التى تستعصى يحولها إلى هراوات، فى مقدمتها غطاء من الحديد الصلب.. متعمداً على المحافظة على كل جزء مازال به دمها.. يقف أمام البقعة ويخاطبها..

(صبراً فإن النصير هو الله.. سوف يشهد دمك غياب نجم أحد

fb/mashro3pdf

الأوساخ.. ويقول لكل واحدة ذهبت مثلك.. لا قلق بعد اليوم.. فقد فاض الكيل، وطفح، ولم يعد هناك متسع، ومن مجموع الكل الراحل، نأخذ البركة والعون، فيا رب السماء كن معنا عينًا ترى وأذنًا تسمع..)

انتشلته دميانة من مناجاته، بخبطات على الباب، تعرف طريقها لأول مرة إلى الباب.. فرد طوله وجذب الباب فكشف له عن دميانة، ولما كان نور القمر معكوسًا على وجهها المنمق والمكحل العينين، والمطل على جسدها الغائب بعض منه داخل قميص أحمر من قمصان مريم التى هى صورة لأمها أيام شبابها، للوهلة الأولى غم عليه ونطق قائلا:

- مريم!!

مدت دميانة يدها وكممت فاه، ودفعته للداخل وأغلقت الباب، خوفًا من وصول الصوت للعجوز وقالت له:

- سلامة نظرك، أنا دميانة..

- حسبتك..

- مريم أليس كذلك؟

- نعم.

- وأنا من أجلها جئت.

التفت إليها مأخوذًا، رأت حاله، فجذبته من يده، أجلسته على حشية قديمة كانت بجوار الخوازيق، وكشفت الحقائق، قالت إنها بعد أن دخلت الغرفة، ضمت ملابس مريم لحضنها، أخذتها سنة من

fb/mashro3pdf

النوم. .ولم تدر إلا بيد تربت على كتفها، رفعت عينيها فإذا بمريم أمامها فى كامل زينتها مجلية كعروس، اقتربت منها، وقالت إنها عروس فى الأمجاد السماوية، وأمرتها أن تأخذ قميصًا من قمصانها، ولما تكاسلت، مدت - هى- يدها واختارت الأحمر، وقالت هذا اللون يحبه أبى ..

ولما سألتها: ماذا أفعل به.؟

قالت: ادخلى على أبى فى خلوته، ليتم الالتقاء الليلة..

تعجبت من الطلب، فقالت إنها تريد أن يتم التلاقى بين عرق جسديهما ليمتزج بعرقها المعبق به قميصها..

ابتسم عطية وقال:

- هى تحس بى.

انتهى عطية من أداء الواجب، فمدت دميانة يدها تداعب غابة الشعر النابتة على صدره، فى عينيها سعادة وليدة، لم تشعر بها من زمن وبالتحديد منذ رحيل الغالية التى عادت الليلة ورغبت فى جلب السعادة لجسدها الذى خاصمته يد عطية الخشنة، حتى أنها قالت لنفسها فى جملة المحرمات التى وجب عليهم تنفيذها ابتداءً بالأمر الخاص بعطية وإلزامه بعدم ارتداء زى العربى أو الفلاح، وإجباره على وضع العمامة الزرقاء، وحرمانه من مطيته التى كانت تحمله لأماكن عمله..

فى خضم النشوة السارية فى جسدها، كان لا بد لنظرها أن يقع على كومة الخوازيق الموجودة فى ركن من أركان الغرفة، كان لا بد

fb/mashro3pdf

من السؤال:

- ما كل هذا؟

- من أجلها.

- من هى؟

- مريم.. يا أم مريم..

سمعت الاسم فاعتراها الوجوم، ليمس قلبها قلق مبعثه أنها لا تتحمل ضربة ثانية، فيكفيها ما لاقت بفراق مريم..

فطن عطية إلى ما يعتمل بداخلها من جراء معرفتها لسره، فمال عليها والتقط وجهها بين يديه وطبع قبلة على جبينها، فإذا بها تشهق، وتدخل فى نوبة بكاء، استحلفها بمريم أن تسكت، فسكتت، ودخلت فى صدره. .

عاودها القلق القديم فى حمامها الواقع تحت السلم والماء الفاتر ينساب على جسدها المدملك، الذى مازال قابضًا على تماسكه لم تقتحمه التجاعيد.. كأنه كان ينتظر اللحظة المناسبة، ليظهر لها من المكان الكامن فيه، ولم يجد إلا تلك اللحظات التى أعقبت تنفس مسام جسدها، بعد أن ذاق طعم اللذة التى ظل محرومًا منها ثلاث سنوات..

عاد وذكرها باليوم الذى فيه حطت المرأة البدوية بمقطفها بعد أن نادت عليها وهى تزعق «نبيّن زين»..

فرشت جسدها فى مجاز البيت، رمت الودع ووشوشته، وكانت عيناها على مريم وهى ملفوفة فى أقمطتها فى صدر زهيرة.. وقالت:

fb/mashro3pdf

- قمر لكنه غير مكتمل .

تعجبت زهيرة وقالت إنه من فرط جمالها كَثُرَتْ العيون الباصة. وبالتالى كَثُرَتْ العرائس التى اقتحمتها الإبرة.. إلا أن الحلبية لم تعبأ بكلام زهيرة ولا بلهفة دميانة التى شهقت وقالت: يا خبر أسود واستمرت فى كلامها:

- لكنها يوم أن يكتمل قمرها، تتغير الأحوال..

أخذت أجرتها حفان من القمح ومضت ليظل ظلها يلاحق مريم، ولم تسترح منه إلا بعد رحيلها..

تعود دميانة من شرودها وتغرف سطل ماء من الماعون وتصبه على جسدها، وتتجمد، وترمى بالسطل، لتذكرها أن مريم بعد أيام سوف تكمل عامها الخامس عشر..

خرجت من تحت الحمام وجسدها ينقط ماءً، واتجهت إلى عطية، الذى وبخها لخروجها وهى على هذه الحال ولما كشفت له كل هواجسها، ضحك وقال: فرجه قريب .

ولم يفتح فمه بكلمة أخرى وخرج..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١٢)

تبدو الوجوه غارقة فى صباح مغاير لسابقيه، هكذا تراه فرحانة وهى تستقبل الشمس الطالعة التى ترش أشعتها على الأجساد المتقاطرة على لحم أرض الجسر وهم يحملون الجوار يف والمقاطف. .

القليل منهم يجر بقرة أو جاموسة.. عيونهم تعانق كاشف الجسور القابع تحت أشجار أرض السواقى. .

يسيرون وآثار الليلة المنقضية سكنها الهرج الذى أشاعه البلاصية تحط آثارها فوق أجسادهم المتعبة، وآثار ما رمته السقوف ظاهراً فوق قحوفهم: نخالة بيضاء منتج عملية التآكل بفعل السوس للجريد المجدول بالبوص.

ما تراه من صمت يدل على أن الخبر لم يعد قيد الحفظ فى رأس الكاشف ورجاله، فالخبر تسرب، فتغيرت طبيعة الوجوه، تحولت

fb/mashro3pdf

إلى وجوه غاضبة لا تملك الكلام الذى كان يصل إليها مضمخاً بجمل تتدحرج من أفواه بعضهم محملة برائحة الجنس.

قد يميل عليها أحدهم ويكاد كتفه يصطدم بكتفها، ويهمس قائلاً:

- يا خسارتك يا ليف من قلة تنسيلك.

هذا لا يحدث معها الآن..

تحول عينيها لمراقبة النسوة اللاتى يتحركن بحرية، لا تجد بينهن صبية ولا بنت بنوت فجميعهن من الكبار، تراهن وتتساءل من منهن غداً سوف تخرج وتتحرك بحرية غادية ورائحة..؟

بالطبع ستقفر الطرقات من ظل صاحبات القمصان ذات الأكمام الطويلة، سوف يقبعن فى القاعات الجوانية، بعيداً عن الأيدى البلاصية الذين قال عنهم الذل إنهم من أوباش الجند، كل همهم تعقب من يرفض دفع المكوس والمفارم وكذلك كل من يرفض قبول ما يقرره مباشر الخراج من أرض الإقطاع..

خطواتها واتجاه سيرها من يراها يعرف أن وجهتها السوق. تعلم علم اليقين أنها سوف تجد بسيط الحبال مقرفصاً فوق حشيته المصنوعة من الليف، يترصد حركاتها، يعد عليها أنفاسها، ويعرى جسدها بعينيه المزركشتين بالرماص دائماً. لا يكفيه ترصده لها وهو يقعد لها أمام دارها..

لم يردعه كلام كل من توسطت لديه ليرفع أذاه عنها، بما فيهم الشيخ سيد كتكوت رئيس العدول، وعلى شوشة...

fb/mashro3pdf

تمنت أن يخلوا بينها وبينه، فتكون حرة فيما تفعله معه، لم تحلم إلا بوضعه تحت ردفيها، تدوس عليه، ولن تتركه حتى تزهق روحه العفنة، أو يلفظ أمعاءه من فمه أومن فتحته التحتانية..

كما توقعته، تلمحه من أول خطوة لها على أرض السوق مقرفصاً فى مكانه المعتاد، يعيد ترتيب حجاله، وحباله، وعينه على حنك السوق، تصطحبها، وترافقها وهى تدنو من منتصف السوق، تزكم أنفها رائحة سقط البهائم فى الطست الكبير أمام محل عبد الحفيظ القصاب، تمد خطواتها و بأصابع يدها تكمم أنفها وباليد الأخرى تحمى القفة الحاوية بضاعتها من الوقوع، هذا الوضع يتيح لبسيط رؤية إبطها القابض على نتف من الشعر الخفيف، يلمح ذلك ويقول:

- باب النجار مخلوع.

لا ترد عليه، فيغريه صمتها ويجعله أكثر جرأة، فيمد عينيه إلى انحدار ظهرها، يرى تعارك ردفيها، فيصرخ:

- مهر والنبى.

لا تلتفت إليه، وتمضى فى طريقها. وتميل إلى ركن بعيد تجلس دائما فيه، تريح القفة، وتبدأ بتسوية المحيط المحدق بها، تخلصه من القش، وبقايا روث الدواب، وبكل ما لديها من قوة، تغض الطرف عن عينى بسيط الثعبانيتين، مكتفية بوضع عينيها على غطاء القفة، تبعد عنه الذباب اللحوح ثم بهدوء وبالتدريج ترفعهما وتطوق قلة من الأطفال العرايا، فتغمض عينيها و تسافر بخيالها لدار ولدت فيها فكرة البديل الذى يكون جزء من الذل الذى لا بد

fb/mashro3pdf

أولاً أن تجعله يضع البذرة، لتشب حياة جديدة فى رحمها، فيعيد إليها صك الأنوثة الذى تمارسه أغلب نساء البلدة، تسربت الفكرة مع انطلاق صراخ المرأة، دفعت بيدها تجس، عرفت بخبرة السنين أن الولادة عسيرة، طلبت ذيل فأر، لفته فى قطعة خبز، أكلته المرأة، فما هى إلا ساعة وتنطلق صرخات الطفل تملأ أرجاء البيت، ويأتى لها بقطعة قماش بالية، تمدها عجوز البيت:

- بركة من ريحة الشيخ سيد لفيه فيها.

تهم بردها، إلا أنها تحت إلحاح العجوز تأخذها وهى تدعو خيب الله الرجاء

خرجت من البيت والفكرة مكتملة، ينقصها الأداة.. عثرت عليها فى ليلة مطيرة..

بيدها تهش ذبابة استقرت على سطح الغطاء، وتهز رأسها وتقول يا فرحة ما تمت أخذها الغراب وطار ، وتغمض عينيها، وتكمل الإبحار..

القمر يعانق بيوت الدرب، فتبدو هى تحته كعروس، بيضاء البشرة، ناعمة الملمس ذات صدر كبير، تمسك بالمشط تضربه فى الخصلات المكتسبة لون القمر، يزغرد المشط، بل يغنى..

أنا مشط عملت للتسريح

لا أسرح إلا لكل مليح (١)

كان الليل فى أوله، والذل تشتاق إليه نفسها، والطرقات خاوية،

(١) من التراث الشعبى.

fb/mashro3pdf

قابضة على صمتها.

- عطشان يا أسيادنا ميه سلسبيل.

الصوت يشوبه إعاقة ما، لكنه معروف لديها، أزاحت القعب المملوء بالفول النابت جانبًا فاهتز سطحه، فتداخل الكمون وعصارة الليمون الطافية فوق السطح..

وهمست باسمه، وبحركة خاطفة أدخلت جسدها داخل القميص، ولمت شعرها تحت منديل، اتجهت ناحية الباب، جذبته، كلبش الفرح بقلبها، لمجرد رؤيتها لوجهه المغسول بدموعه، سألته بلهفة:

- لماذا الغيبة؟

لم يرد، كررت السؤال، نطق وقال:

- عطشان يا أسيادنا.. مية سلسبيل.

أشارت إلى عينيها، وهبَّت واقفة، دخلت الخزانة، أحضرت له كوز الماء، قربته من فمه، زم شفتيه، وأخذ يردد:

- النبع قريب.. والزاد قليل.. وأنا لست من الذين يشربون من النبع.. عطشان يا أسيادنا.. مية سلسبيل..

يسكت، فتسكت، و بعينين بهما بصيص من خصال الصياد تلثم جسده بنظرات، تكتشف العرى الذى هو فيه، والذى يتيح لها رؤية قدر كبير من عورته، ويظهر حلمها، فتجعله فى حلبة نظراتها، تفحص وتدقق، ولما استقر رأيها، لاح لها فص الأفيون الغائب فى شق أحد جدر البيت، الذى تستخدمه فى حالات الولادة المتعثرة (هكذا علمتها زهيرة قبل أن تهجر ما كانت تقوم به بعد أن

fb/mashro3pdf

تزوجت)، تحضره، وتدفع به فى فمه، يلوكه.

أثناء ذلك كف عن ترديد كلماته.. ترمقه هى وتقول «تخاطب نفسها»:

-العطشان من يجد الماء ولا يمد إليه يده. والماء أمامى.. لا بد أن أشرب..

سحبته ودخلت الخزانة، وما أن همت به وهى منتصبة بعد أن تخلصت من هدومها، إلا وتصيبه رعشة قوية، ويصبح كالجمل الذى يضرب قلته، فيحدف بالريم من زوايا فمه، وينتصب واقفًا، يسحب الباب ويجرى فى الدرب على وجهه..

تعود من ذكرياتها تحت الضجة التى يفتعلها بسيط فور رؤيته لعلى شوشة يدخل حاملاً خرجه.

يدخل على شوشة السويقة، وقبل أن يفارق حنكها يعبره واد خيبة يعتلى ظهر حمارته الجرباء، يعلن عن الفردة وعن اجتماع مجلس العدول..يميل إلى محل القصاب الفاتح أبوابه، وقد علق ربع ذبيحة..

عانق المعلم عبد الحفيظ جسد على الظاهر عليه الهموم، ولما جاءت عيناه فى عينيه الحمراوين، و حولهما انتفاخ بسيط مصبوغ بسواد ظاهر، وحسنة كبيرة تنام تحت أنفه..

فسأله:

- بالصلاة على النبى ما بك.؟

- لا شىء..

fb/mashro3pdf

فتركه وتأمل جيداً جرابه، وإذا به يرسم ابتسامة على وجهه الناشف ويقول:

- الظاهر أنك معكر المزاج اليوم.

مد يده، تحسس العمامة، رغم علمه أنها نظيفة، وأبعد عينيه عن وجه عبد الحفيظ وعانق ربع اللحم:

- أريد رطلاً.

اتسعت ابتسامة عبد الحفيظ أكثر من الأول وقال ساخراً:

- كأنك جئت فى أيام النحس.

يهز على رأسه، وتتسع ابتسامة عبد الحفيظ، ويقول وهو يشير إلى الربع.

- هذا ليس للبيع، ثمنه مدفوع. كما تعرف.

سكت على ومال برأسه للخلف، وبرقت ذكرى أول يوم رأى فيها ذلك الربع فى مثل تلك الأيام. .

أخبره عبد الحفيظ أنه يظل هكذا حتى يقبل البلاصية، يأخذونه، وفى الخلاء يوقدون النار و ينضجونه. .

من نبراته علم أنه لم يقل إلا نصف الحكاية، فباغته متسائلاً:

- ثم ماذا..؟

- لا شيء..

نبش وجهه بنظرات ذات معنى، نظرات تحمل خبرة السنين التى قضاها فى صحبة المتعيشين، ..أصابته تلك النظرات فى مقتل فتململ فى جلسته وقام يطارد جوقة من الذباب اللحوح حط فوق

fb/mashro3pdf

الربع، ولما عاد لمكانه انفثأت كوامن نفسه وقال:

- اعلم أن اتفاقًا تم بينى وبين كاتب الحوالة، وهذا الاتفاق ما كان يتم لولا مباركة الكاشف له، وبمقتضى هذا الاتفاق أبيع الربع بنصف ثمنه، مقابل هذا أبيع الربع الثانى بضعف ثمنه للعامة.. أعرف أنك تقول أنى بهذا التصرف أمد يدى فى جيوب الغلابة وآخذ منهم بدون وجه حق ثمن ما يزدرده الأوباش.

- هذا بالضبط ما أريد قوله..

- اعلم يا على أن الدنيا هى حلبة للمصارعة، والذى تمسكه فى يدك إذا لم تلعب به فأنت لا مؤاخذة أهبل، وأنا لا أريد أن أكرر ما ارتكبه أبى، فى ذلك الزمن البعيد..

تسكته ضجة قوية، وصلت إلى سمعهما فأيقن على أنه مفارق ولو على سبيل التأجيل حكاية من غرائب ما يمتلكه عبد الحفيظ عن والده السكى، و رغمًا عنه انجرف صوب مصدر الضجة، فإذا به يرى الفراغ الذى كان رائقًا، أصابته عكارة الغبار الناتج من ضرب حوافر الخيل للأرض الترابية، وما هى إلا لحظات و يجد يد عبد الحفيظ تسحبه ليوقفه بجوار جسده المسكون بانتفاضة جعلته كالمحموم، ولم يكتف بذلك بل دس فى يده منشة من الليف، وطالبه بهش الذباب الحاط فوق الربع المشنوق بواسطة الخطاف، لم يعترض، فراح يذب الذباب وفى نفس الوقت يرهف السمع، فإذا بالسكون الذى كان سيدًا مسيطرًا قد تحول إلى بوتقة تضم صهيل الخيل وهمهمات الأفواه المزروعة فى وجوه صفراء، سرعان ما رأى أحد

fb/mashro3pdf

البلاصية يتقدم بعينين تنذران بالوعيد، قلب فى الربع.. ثم خبطه عدة خبطات وقال بدون أن يلتفت إلى عبد الحفيظ:

- طازجة..؟

لم يفتح القصاب فاه واكتفى بتطويح رأسه، حتى البلاصى لم يهمه الرد الذى لم يتلقاه، و بخنجره قطع جزءً، قذف به فى فمه، وما أن ازدردها، حتى فُرشت ابتسامة على وجهه، وأشار إلى أحد رفقائه، فنط من فوق الجواد، أنزل الربع من الخطاف، حمله، ثم ألقى به أمام أحد الجنود الذين لم يتركوا مقود مطاياهم، بخلاف حفنة منهم، اتجه كل واحد منهم إلى أحد الحوانيت المغلقة، كتب على بابه اسمه وكذلك اسم أستاذه، وما أن انتهوا حتى تجمعوا، فتقدم كبيرهم الذى تذوق الربع وقال بصوت به من الوعيد الكثير:

- قل لكل من يفك العوارض، ويبيع ويشترى ابتداءً من الغد، وجب عليه دفع المعلوم لكل صاحب اسم دوُّن فوق باب حانوته، ومن يعترض فالويل له.

يدير على عينيه يتابع السوق الخاوى إلا من فرحانة وبسيط الجالس منكس الرأس، يخيل إليه فى جلسته أن لون الحوانيت المصفدة بلون التراب المعجون بماء آسن، لأول مرة يتخيل هذا التصور، ربما- هو يعلم ذلك- لأن السوق يفقد الأطفال، وبفقدهم يفقد الضجيج الذى يصنعونه وهم يمسكون بالغرابيل، ينخلون بها تراب السوق، على أمل أن يعثر أحدهم على العتق أو الدنانير التى

fb/mashro3pdf

قد تكون اندست فى التراب، فكم من مرة لمح بعينية نشوب مشاحنات، لأن أحدهم عثر على دينار، والذى بدوره يكون فى يد أقواهم بنية، طبقًا لقانون الغاب..

كثيراً ما طفت فوق السطح صورة الطفلين، وهما مع جموع الأطفال يفعلون نفس الفعل المفقود اليوم، تلك الصورة، يطردها على الفور، ولا يسمح لها بالتوطن، لكنها غصبًا عنه تشغل حيزاً ليس بالقليل فى حواریاته مع عبد الحفيظ، الذى بدوره كان يتجاوب معه بحرارة أقل بكثير من تعاطيه هو مع الصورة.. لأن عبد الحفيظ يكون تركيزه مع الزبائن لا مع أى حكاية مهما كانت نكهتها حريفة.. إلا أنه أحيانا يبدى نوعًا من القسوة مع الأطفال، إذا اقتربوا من حانوته، نهرهم، فإذا لم يبتعدوا سحب العصا المركونة- دائمًا- خلف الباب، يلاحقهم، ولا يتركهم حتى يتراجعوا بمقدار ملائم، قد تصل المسافة عدة قصبات..

على لا ترضيه تلك التصرفات، وفى أغلب الأوقات لا يقف مكتوف اليدين، يقوم، ويمسك به، ويجلسه بالقوة.

ذات مرة قص هذا أمام زهيرة، فقالت له إنها هى وعبد الحفيظ نداده، هى ولدت فى كنف براح البحر، وهو فى كنف السكى القصاب الذى شاهدته ونائب الحسبة يقتطع جزءً من لحمه ليكمل رطلاً من اللحم كان قد باعه ناقصًا بعض الدراهم..

فى ذلك اليوم رأت عبد الحفيظ الذى كان يلعب الحجلة بالقرب من حانوت أبيه، وقد كلبشت بجسده انتفاضة، سرعان ما وقع

fb/mashro3pdf

ليدخل فى حالة إغماء لم ينفع الماء الذى رش به وجهه، بل تفاقم أمره إذ تخشب جسده وراح يحدف الريم من فمه.. فحملوه مع أبيه إلى دارهم..

فى أوقات كثيرة حاول على معه فتح هذا الموضوع، لكنه كان ينأى بنفسه عن المتاعب، لعلمه بالحالة التى تباغته بين وقت وآخر.. يفعل ما يفعله الناس الذين أضمروا فيما بينهم عدم فتح ذلك الباب أمامه.

بلكزة من يد عبد الحفيظ، يسترد على خاطره الراكض خلف حديث نفسه وذكرياته..

يرمى على بعينيه على وجه عبد الحفيظ، فإذا بشفتيه تختلجان.

- تعرف أنى لم أعلق الربع الثانى طبقًا للاتفاق.

- هو بالفعل ما لفت انتباهى.

كلمات قالها على بدون أن يرسم على وجهه أى علامة من علامات الدهشة أو الاستغراب، لكنه واصل بنفس الملامح:

- ليس بالمستغرب فى هذه الأيام أى فعل، فكل شىء قابل للحدوث، بمبررات وبدون.

كلمة المبرر دفعت عبد الحفيظ إلى توضيح كلامه:

- الناس كما تعلم لا ينقصها الغلاء، وقلت لنفسى يا عبد الحفيظ لا تكن أنت والكاشف والبلاصية على الغلابة الذين هم فى النهاية كل أهلك..

fb/mashro3pdf

كلماته تركت صمتًا ثقيلاً، حط على نفس على، فلا يعرف فى أى جانب يضع كلام عبد الحفيظ، فى جانب الصدق أم فى الجانب الآخر.. يقول لنفسه الأيام كفيلة بوضع كل شىء فى مكانه الصحيح. ويصمت ويرهف السمع مشاركًا الكل.

على وقع ضجة الخيل التى تقبل، قام عبد الحفيظ وأمسك بالمنشة واقترب من الربع المعلق.

أما على وبسيط وفرحانة، استعدوا بخطوات مسرعة للهرب من السوق..

fb/mashro3pdf

(١٣)

في ركن بعيد عن حلقة السمر يجلس جاد، يكلم نفسه:

الليلة أراهم يغتصبون الفرحة، يعيشون اللحظات باستمتاع كامل، يزيحون الطبقات المردومة فوق ملامحهم الحقيقية، فتظهر وتنطق التقاطيع رغم الرمق والصفرة الضاربة فيها.. قال على حينما جاء إلينا هنا أول مرة: إن الناس هنا تتحايل على الأيام تناغيها إذا كشرت وبان منها سوء النية والتدبير، تراهم يميلون على كسرة الخبز الملقاة ينفضون عنها التراب، يقبلونها ثم يجعلونها تتماس مع جباههم ويبحثون لها عن شق فى جدار يودعونها فيه، فإذا ما خمدت الأفران وعم الغلاء وعزت الأقوات، فتشوا عن الشقوق وأخرجوا أماناتهم، ندوها بالماء وأكلوا وحمدوا خالق البرية القادر على رفع البلاء والغمة..

fb/mashro3pdf

الوجوه تبدو له متحفظة رغم مسحة الهدوء المحومة فوقها، قلقة على اليوم القادم الذى يقف مستيقظًا، ليتسلمهم فيستنزف بقايا قواهم وهم لا يملكون إلا التماسك لكى لا يسقطوا تحت حوافر خيل كاشف الجسور..

يطيل النظر إليهم فتظهر له وجوه الرجال تخالطها وجوه أنثوية مغسولة تطل فوق أجساد لفت داخل قمصان تحدد تفاصيل أجسادهن. البعض منهن فضلن القعود بعيداً عن جلسة السمر والمكوث فى الدور تحت الفتيل المشتعل والمغموس داخل قطعة الشحم يضممن الصغار ويقربن النوم لعيونهم بسرد الخرافات..

يقترب من أحد المجالس ويجلس بالقرب منهم وهم يتبادلون أطراف الحديث الذى تشعب فشمل:

-ما تم إنجازه من أعمال تقوية الجسر.

- كم الفؤوس التى تكسرت.

- عدد السياط التى علّمت فوق ظهور بعضهم.

ثم سلكوا طريق الأكل منهم من قال إنه أكل:

-مش الجبن الأزرق الذى يقطع ذنب الفأر لشدة حرارته و ملوحته

-الجبن القريش بالبصل..

وسكتوا عن الكلام فور انتهاء أحدهم من حفر السيجة التى ظهرت حفرها تحت ضوء القمر الواضح، وجاد من بعيد يراقبهم وهم يجمعون كلابهم البيضاء والحمراء، وبهدوء يودعونها فى خمس وعشرين حفرة، وبقسوة تنطلق الأيدى لتنقل الكلاب،

fb/mashro3pdf

ليعلو الهرج إذا ما طوق كلب بين كلبين متشابهين، هنا يزعق الصوت: كلب ومات. .

يبتسم إذ يرى الفريق المغلوب، يطلب اللعب دوراً آخر، فيلعبه، فلا يكون الفوز حليفه، فيمد أحدهم يده إلى الحفر، فيهدمها ويقول:

-وجب الآن الذهاب إلى النوم .

يتدخل جاد ويعلن:

- ميعاد النوم لم يحن بعد.

يشير إلى عدة شغله المنصوبة. .

فيلتفت الجميع، فإذا المكان قد أعد لخيال الظل، تماماً كما تقول القواعد، بيت الخشب، ثلاثة جوانب منه مكسوَّة بالخيش، وعلى الجانب الآخر شد عليه ستراً أبيض. .

التجربة جديدة فجاد لم يدخل هذا البيت منذ حادثة الشيخ سيد، وبالطبع هو يحتاج إلى مساعدين، هكذا تهامسوا، فقام نفر منهم، أنصتوا لجاد ثم دخلوا معه البيت وبدأت الحكاية بصوت على يقدمها: نحن الآن في قصر عامر، وسط فرش وثيرة، ونساء جميلة، ورجل ربعة، يجلس فوق خوان، من حوله النسوان، تتمدد أمامه بطنه، يحوط عليها بكلتا يديه يصرخ ويقول يختفي رئيس الفرقة ويظهر الرجل الموصوف

- آه يا بطني.

تقترب منه جارية:

fb/mashro3pdf

- سلامة مولاى.

- بطنى يا سلسبيل.

يرتفع صوت يغطى على صوت الجارية يجعل الحضور يلتفتون إليه ..

فإذا بعصا تتحرك، تلامس البطن الموجوعة، فيفزع صاحبها إذا رأى حرفوشًا يصرخ فيه:

- جئت إليك يا أيها المفجوع، الأكل مال الغلابة وفى بطنك مبلوع، فتحول بقدرة رب العباد فى بطنك لكلب مسعور.

يتوسل صاحب البطن الموجوع قائلاً:

- سيد مجذوب خذ مالى، خذ حشمى، وهات لى راحة بالى

يصفق الحضور لإدراكهم لخفايا الأمور ومن المقصود بصاحب الصوت والبطن الموجوع .

يزعق صاحب العصا فى وجه الموجوع:

- أكلت القرى والنجوع، ولولا الصكوك لملكت الدور والقبور، نسيت رب الناس، ولم تنظر إلى أبيك، من ظلم وقتل وشَكّ فى الحديد، لم تقف أمامه أى سدود، لما فاض الكيل، ثار الناس، فرسم ساكن القلعة بشنقه فحمل إبريقه فوق رأسه وقصد الجبل، فغاب هناك، ابتلعته الأسود، وفى بطنها طاب، فرمته من مؤخراتها خراء أكله الذباب.

وينظر إليه ليقرأ وقع كلماته ويسأله:

-أتريد الشفاء ورفع البلاء؟

fb/mashro3pdf

يهز الموجوع رأسه، فيمد صاحب العصا بمكتوب ويطالبه بتلاوته، فيقرأ:

- لترقص رقصة القرد ميمون، وتقر أن للناس حق معلوم فى الجنان ولا تنس ذكر الحسان والخصى الجلبان.

يغطى صوت فلاح يلهث، وقد ساح عرقه فضيَّع ملامح وجهه:

- البلاصية يحرقون الأرض البور.

يتفرق الناس من حول جاد، ليقف مذهولاً يردد:

كل ما أقلب فى سواقى العدل وأزرع

ينحصد قلبى يزودنى جرايح

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١٤)

لا شيء في خاطر على المأخوذ والشريد في الأرض البور المستباحة من النار تأكل هيشها وحلفتها وذيل الفأر، إلا الأصوات التي طاردته في لحظة اندفاعه، تتردد بداخله، تعيد تشكيل نفسها.

ارجع يا على..

البلاصية هناك..

من لي من بعدك يا على..

أين أذهب بالصغيرين..؟

ارجع يا على..

لم يسمع... فقط شوَّح لهم وقال: أنتم على البر فليس الكابش على الجمر كمن يستدفئ بها..

حينما وهنت أصواتهم، قال متسائلاً: ماذا لو عاشوا هناك

fb/mashro3pdf

بجوارها، هل كانوا يقفون نفس الموقف المحايد..؟ ، يكتفون بالنظر إليها، والنار تعلو ألسنتها، والقطع السوداء الهشة ترتفع متكاثفة، تحلق ثم تسقط، لتعلو موجات أخرى..

هكذا خرجت تساؤلاته مباغته وهو يدوس بقدميه على بدايات الأرض البور..

يعرف أن معظم من فى الأكواخ يعد ما يقوم به تهوراً، هو وحده من يملك تفسيراً لذلك، لا يختلف عن موقفهم هم من ترك جاد وحيداً مع زمرة من ناسهم بين الجدار المغطى بالقماش الأبيض فى أول مرة يدوس بلسانه على منطقة طالما أحب ارتيادها.. هو الخوف الذى ولد بداخله مع أول نظرة عانق فيها البراح الذى كان يركض فيه متحرراً من كل شيء، بدون أن تسلط عليه العيون، فتعد الأنفاس التى يخرجها. .على متن تلك اللحظات، أخذت المشاهد تتكون وتتداخل، لتكون حياة قصيرة عاشها هناك، متحررة من كل قيد.

يرى أن عليه الكف عن التذكر، ليس خوفًا، ولكن حذراً من المشاعل الممسك بها البلاصية، وهم فوق ظهور خيولهم والحياصات المطوقة خصورهم تلمع من انعكاس الوهج على قطع الفضة المرصعة فيها..

فى تلك الهدنة، يفاضل بين الطرق التى يتوجب عليه تفاديها والطرق التى يكون فيها فى مأمن من الأيدى الغشيمة التى توصله بسهولة ويسر إلى بيته الرابض هناك تحت شجرة السنط الظاهرة له بوضوح تحت سطوة النيران التى جعلت البراح واضحًا كأنه يحضن شمس النهار.

fb/mashro3pdf

(هكذا يُختم اليوم يا على، فاليوم الذى يبدأ بزلزال، حتمًا و لابد أن ينتهى بفاجعة، وها هى الفاجعة تنسج، ويقدر لك أن تراها أمامك، وأنت تحاول جاهداً الالتفاف حولها، وما بين البداية والنهاية مشاهدات.. ما أفظعها يا على..

البداية مع عبد الحفيظ، والزاوية كانت المكان الثانى لك)

ما أن انتهت الصلاة وفرغ النفر القليل من ختمها، حتى لاحق واد خيبة وهو يدنو من الشيخ سيد كتكوت...

كثيراً ما أرقه السؤال عن تلك الصلة التى تجمع واد خيبة (الذى يلقبه الناس أمير أخور ربما هذا اللقب ناله من كونه يقوم على خدمة فرسة الكاشف) بذلك الشيخ الذى لا يعرف من أمور الدين إلا القشور، وتلك الدراية المحدودة جعلت الكاشف يضمه إلى العدول ليصبح بوقًا يضاف إلى أبواقه، ويتيح له السطو على أموال اليتامى والأرامل، والموتى الذين بدون وريث يرثهم، وكذلك يشارك فى تقسيم الفردة على العائلات، يخفف عن هذا، ويزيد على هذا، ومثله مثل بقية العدول لا يصيب إلا المسامحة التى ترفع عنه الفردة وأى مغارم أخرى.

لا يعلم على لماذا يستدعى كل هذا كلما مر طيف الشيخ سيد، وأيضا كل مرة يدخل فيها الزاوية، لا بد أن تعانق عيناه الطاقة، المغلقة دائما تحت المنبر، يعرف بأن بداخلها الماعون الحاوى- دائماً- منقوع أبو النوم ، لذلك يؤثر دائماً التوارى خلف العمود، يشاهد يد الشيخ سيد وهى تعالج القفل، يفتح باب الطاقة، ويخرج

fb/mashro3pdf

القعب، يأخذ منه بعض الجرعات، ثم يعيده إلى مكانه. .

هذه المرة، اقترب منه واد خيبة راجيًا:

- يا شيخ سيد ترفق بنفسك، فاليوم ما أحوجنا إليك، لتكون معنا.

- آه ياواد خيبة لو لك زوجة مثل زوجتى، فأنت تعرفها وتعرف وجهها الشبيه بوجوه القردة، الذى كادت أن تذيبه بالحلاوة التى تصنعها زهيرة وتبيعها فرحانة. .

ويقف عن الكلام، يلقى بنظرة إلى باب الزاوية، يتأكد أنه لا يوجد أحد بالقرب منه، فيرفع القعب، فيلاحقه صوت واد خيبة:

- يا شيخ سيد ليس هنا، فإن لم تكن تخاف من حرمانية المكان فخف على ضياع هيبتك. .

يكف عن الشرب ويثبت عينيه فى عينى واد خيبة ويقول:

- لديك حق. . بل كل الحق فيما قلت. . تعرف أنك أحيانًا تقول كلامًا منطقيًا. . لا يخطر على بال أحسن الناس عقلاً. ، ويجب على أن أكون منتبهًا فعلى رأى المثل من لا يحدثه قلبه لا يفيد تذكيره. .

- ها أنت قلتها، فيجب أن تترك القعب.

- نعم. . خذه وضعه فى مكانه. . واحذر إراقته. .

بعد أن أخذ منه القعب وأعاده لمكانه، طلب منه العون لينهض، فرفعه من تحت إبطيه، وأخذه حتى باب الزاوية، وسنده حتى أدخل قدميه داخل وطأه، وانتظر حتى خرج، ثم أحضر له بغلته، وسمح له بأن يكون كتفه مطية له حتى يعتلى ظهر البغلة. . ووقف حتى غاب

fb/mashro3pdf

عن ناظريه ولما دخل واد خيبة الزاوية أخذ يبكى حتى احتقنت عيناه. .

ذلك المنظر، جعل على يجمد فى مكانه ولا يستطيع أن يخرج. . وما إن سمع بكاء واد خيبة وهو يخر ساجداً مناجياً ربه. .

(سامحنى يا منان، أعرف أنك تعرف أنى بوق الشيخ سيد الذى هو بوق الكاشف، فأنا الغلبان لا صنعة لى إلا فرسة الكاشف، وصوتى الذى يحمل العذاب إلى الناس، يبشرهم بالمغارم والمكوس، لكن ماذا بيدى لأفعله والطوفان شديد، الذى فى ذروته يأخذ كل شىء فى وجهه، لا يذر لا أخضر ولا يابس. . وأنت تعلم أن هذا الشيخ صاحب الذيل النجس هو من يملك جلب المسامحات. . فسامحنى. .)

فى لحظة سكوته وانشغاله بمسح الدموع والمخاط، يخرج على ويجلس بعيداً عن الزاوية، ينتظر حتى يخرج واد خيبة، الذى ما أن يفارق عتبة الزاوية حتى يرفع عينيه يعانق صفحة السماء ويتمتم:

- يا رب هذا أمر الكاشف.

وبعينيه الدامعتين يمسح الساحة وكذلك يفعل معه الناس، ومنهم على شوشة الذى فرز جسده الجهم المقبر تحت جلباب قديم فقد زهوته، يتيح طوقه الواسع لشعر صدره أن يظهر ويتناغم مع شعر رأسه الأسود الذى يخالطه البياض. .

فى تلك اللحظة كأنه يعرف واد خيبة لأول مرة، وكأن غشاوة كانت تحول بينه وبين معرفة معدن الرجل، الذى ظل كل السنين

fb/mashro3pdf

الماضية تصر القلوب على وضعه فى الجانب الآخر وهى متمسكة بما يقوله الناس بأن الأقدام لا تمشى إلا إلى الأماكن التى تحبها القلوب، وكل عين حينما تراه تقول له أنت دائماً مكتوب عليك كأهلك أن تكون كذبابة تحوم على فتات الأسياد ترى وتسعد بسكوتهم، وتشقى بتعكر سحنهم.

ومع ذلك الاكتشاف اكتشف أن زهيرة كانت على صواب، فى كل مرة توبخ كل من يقول عن عبد الراضى كلمة سوء.

وكان لا بد أن يقف عن ملاحقة أفكاره ويتابع جسد واد خيبة فور أن تحرك فى اتجاه منتصف الساحة.

وصلها ووقف وحاول إخراج الكلمات، فلم تطاوعه، فمص ريقه، وحاول التكلم ففشل، فقال لنفسه: تشجع يا سليل نخالة الأرض، هى كلمات، سخيفة ومضحكة، لكن مكتوب عليك نشرها، فخفف الحمل وادلقه.. هيا تشجع.. قل...

بأمر سيدنا الموكل من تاج الرءوس شمس النواحى، الوالى المكلف من ساكن القلعة، وبضمان فرمان توليه الشيءون، يأمر بقتل كل القطط، لذلك وجب على من عنده ذلك الحيوان الذى وجب عليه غضب الكاشف أن يتخلص منه بأى طريقة، ومن يخالف تطبق عليه العقوبة المنصوص عليها بمخالفة أولى الأمر.

سمع على المرسوم فتملكه الفزع، ودار وعلق عينيه على الوجوه التى تلونت بالدهشة، وهو معهم فى نفس الفلك الذى تتلاطمه الأمواج، التى تعلو فتلقى بالجثث على الشاطئ الذى ينفث

fb/mashro3pdf

رائحة العفن المنذر بقدوم الوباء الفانى..

ولما هم بمغادرة الساحة وفى استدارة جسده، يصطدم بالذل المغبر الوجه، وكالعادة رسم على ابتسامة على وجهه ومد يده التى عانقها الذل بعينيه وقال:

- لست ممن يشربون من النبع يا على..

مد على يده ليقبض على كتف الذل وهو يقول:

- تعال .

تملص منه وراح يركض وهو يصرخ:

- حافظ على النبع يا على. .. حافظ على النبع يا على .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١٥)

كدستْ خلف الباب أشياءً كثيرة، أهمها على وجه الإطلاق صومعة دحرجتها من جوف الدار، قلبتها على حنكها، طردت سوسًا كان فى جوفها، وجدته يابسًا لا حياة فيه، قبضت منه قبضة وهرسته، فتحول إلى نخالة بنية.

تحسرت على أيام عزها والغلة التى لم تكن تغيب منها على مدار السنة، والضجر الذى باتت تتسبب فى تعميقه بداخلها كلما وقع عليها نظرها، تلك الحسرة لم تولد فى لحظة دحرجتها لها، وجزءً من حنكها يُكسر وينفصل، بل العكس هو الذى حدث: ولدت بداخلها رغبة فى التخلص من عبئها الجاثم على صدرها يذكرها بضياع الذل.. فخلوها الدائم من الغلة يعيد تجسيد المحنة التى ألمت بها، فتمنت الخلاص منها..

fb/mashro3pdf

تلك الرغبة دفعت بها إلى التخلص من الجزء المكسور برميه خلف الدار، وسماع صوت تهشمه إلى أجزاء صغيرة.. فعلت ذلك وهى تعرف أن عمرها من عمر تلك الصومعة التى لم تملأ أبداً، كانت دائماً تملأ إلى المنتصف، وأحياناً إلى الربع، بداخلها كانت تدس بيض الدجاج، خوفًا عليه من الثعابين...

طوقت الحنك المكسور، وعلى عكس توقعها وجدت نفسها بين فكى أفكارها (ها أنت تتغيرين يا بنت الأصول.. تبيعين عرق أمك المدفونة هناك فى حفرة عميقة.. كما رميتى الجزء المكسور رُميت هى بدون تغسيل.. يومها، من كان يملك عقلاً؟.. الكل كان يقول نفسى.. أنت يومها رغم صغرك وعيتى الدرس جيداً، وبالأصح صنعة جمع المخلفات المتعلقة بمن رحل، كأنك تقولين لنفسك تعلمى يا فرحانة صنعة واخفيها.. ومن تلك الأشياء الصومعة التى ترغبين فى التخلص منها، أنت نفسك شاركتى ذات يوم فى إعادة إصلاحها حينما تسبب الفيضان فى تلف الجزء السفلى منها، خرجتى، جمعتى من الطرقات روث الحمير فى سنة كانت الدواب قليلة بسبب منع ركوبها، وقصرها على أولاد الناس، هان عليك جهدك.. احذرى تلك الثورة..)

تخلع عينيها من فوق سطح الصومعة تبحث عن العتلة الحديدية، تجدها وتثبتها كعارضة خلف الباب.

بما فعلته تطمئن على الباب، فتعود إلى الحشية، تجلس عليها، ليخترقها المنظر الذى رأته من خلف البيت، حينما رفعت عينيها

fb/mashro3pdf

لصفحة السماء، فوجدت تلك الهالة الحمراء تطرز الجزء الجنوبى من سماء البلد، أيقنت أنها ناتجة من حريق، لكن أين..؟ لا تدرى، ولمعرفة مصدره، وقفت على العتبة تنتظر أى مار لتسأله، أخذت تنتظر ذلك العابر الذى يحمل إليها الخبر، مضى الوقت ولم يحضر فدخلت وهى تقول: يا رب استر.

يستريح جسدها على الحشية، تمد يدها تتناول المبخرة المجلوة قبل العصر بالرماد والماء وبفص الليمون، أصبحت لامعة، تدخل يدها، تريحها على سطحها الداخلى، ثم تلفها مستمتعة باللمسة الباردة المتسربة إلى جسدها. تقول: ما باليد حيلة..

المبخرة الشىء الوحيد فى البيت الصالح للبيع لتجهيز الفردة التى تفرض باسم الذل، ورغم أنها غالية عليها إلا أنها لم تدخل فى جدل مع نفسها التواقة إلى المحافظة عليها وخصوصا أنها القطعة الوحيدة المتبقية من شوارها..

شاهدها بسيط وهى تدعكها على عتبة البيت، فنطقت تقاطيعه بالفرحة:

- أخيراً سوف يرتاح صدرى.

لم ترد واستمرت فى دعكها..

ترفعها، تضمها إلى صدرها، تغمض عينيها، سرعان ما تفتحهما ويتسرب منهما الماء، وتتمتم..

(كل عزيز يرحل، مكتوب على، الأب رحل، والأم رحلت، والزوج فى طريقه للرحيل.. وهذه ماذا يحدث لو رحلت؟..)

fb/mashro3pdf

سؤال تعرف إجابته، فهى لولا الذل ما أقبلت على بيعها، لكى لا يلحق به أى ضرر من جراء عدم دفع الفردة، فالشيخ سيد قالها لها فى العام الماضى، بأنه يستطيع طلب مسامحة لها من الكاشف الذى بيده الحل والعقد.. قبل أن تبدى موافقتها، عاجلها بشرطه الذى جعلها تغلق فمها إلى الأبد وتقرر ألا تفتح الموضوع مرة ثانية

أخبرها أن المسامحة تطلب بحجة أن الذل الذى عليه الكد والمكتوب عليه السعى قد عطب عقله، بذلك يصدر الإعفاء..

بخبرتها ودرايتها بما فى نفس الشيخ سيد من الذل، لم توافق، فلو حدث ووافقت، لتم إيداعه البيمارستان..

فما كان منه إلا أن قال:

- هو لا يستحق كل ما تقومين به.

لم تتكلم، فواصل كلامه:

- رجل تاه عقله، أصبح ضرره أكثر من نفعه، محسوب عليك، لو أردت رسمت لك بالطلاق، وأنا كفيل برعايتك، حتى يبعث الله لك بابن الحلال الذى يملك الناطق والصامت..

قالت له: لن يكون نصيبه من بعد سنوات إخلاصه لى أن أقتله، ويكفيه ما هو فيه..

فرد بلهجة تشى بالغضب:

- أنت حرة، ولن أجبرك على قرار أنت لا ترضين عنه، ومن الآن أنت فى عينى من أجل عظم التربة.

ونفَّض جلبابه وقام..

fb/mashro3pdf

انحسرت خطواته عن البيت، واكتفى بالحديث معها على العتبة، يأخذ منها أشياءً تقبض على رائحته، يغيب يومًا أو بعضه ويقصد بابها ويناولها الأحجبة المكتوبة لتحرق بعضها والبعض تذيبه فى الماء الذى تلقى به فى الطرقات المعروف أنه يمشى عليها.. وفى كل مرة من تلك المرات كان يختلق حكاية.

مرة قال لها إنه فى يومه الأخير فى دنيا العقلاء، قصد الجبانة، عثر على عظام نخرة، مسكها فوجدها هشة، سحقها ثم نثرها فى الهواء، لتطير وتحط فى مكان قريب منه، فى ذلك المكان خرجت له من باطن الأرض جنية متجردة من كل ملبس، طوقها بنظرة شاملة كاشفة، ارتعد من هول جمالها، لم يكن أمامه إلا الهرب فهرب منها ولجأ إلى مقبرة كانت مفتوحة لم يسكنها أحد بمجرد دخوله وجدها بداخلها، فأسلم لها نفسه..

أصبحت تأخذه بالليل، وبالنهار تطلقه وهى تتلبسه، بلا عقل يقضى يومه، يجوب الطرقات، يلاحقه العيال، يعابثهم ويعابثونه حتى إذا ما أقبل الليل نادته برائحتها المميزة والمعروفة لديه، فيقبل مشتاقًا إليها، تقدم له ديكًا كاملاً، وسطلاً من لبن الغزلان، يشرب بنهم الظمآن الذى عثر على الماء بعد طول بحث، فيتحول بقدرة قادر إلى أسد جسور، إذا ما أقبل فإنه يهد الحصون..

قالت لزهيرة، فضحكت وأخبرتها أن الناس هم الناس فى كل زمان ومكان، يجعلون من الحبة قبة ومن الفسيلة شجرة، ومن الفسيخ شربات.. وأكملت...

fb/mashro3pdf

- الذل كان أعقل الناس، بل مازال، وما فيه مجرد سحابة صيف سوف تزول.. عصفور كان يغرد فلما أصابه مقلاع الصياد هوى. .صدقيني يا فرحانة العصافير لا تخطئ. الذنب ذنب من ينتفون ريشها. . .

تهز رأسها وتتمتم لديك حق يا زهيرة هو بالفعل عصفور كان يغرد فلما أصابه مقلاع الصياد هوى.. ..

تنظر فإذا هى قريبة من الجدار الخلفى للدار، فتشب على قدميها، تلقى نظرة سريعة إلى السماء الجنوبية للبلدة، نفس المشهد الذى رأته مازال قائماً إلا أنه أصبح أكثر حمرة، لوحة تتشكل أمام عينيها فى سكون الليل، تعرف أنها تجهل السبب، الذى تعرف أنه الآن يدفع فيه العتق ليُعرف، وفى الصباح يصبح مباحاً.

(لكن الليل طويل يا فرحانة، وبداخلك نيران طال زمان اشتعالها، ومن يحمل الماء بعيد، سفره قد طال، بيدك أنت شفاء نفسك، وتخليصها من وهم الانتظار. .)

تلك الخواطر تجعلها تهز رأسها وهى تنظر إلى الصومعة المكسورة الحنك والتى جال فى خاطرها منذ وقت قصير فكرة مجنونة، راحت تدفعها نحو التخلص منها. . . .

كالبرق الخاطف تبدأ فى عقد مقارنة بين التخلص من الصومعة وبيع المبخرة، العامل المشترك بين الفعلين يكمن فى فكرة الفقد، فقد المبخرة فعل يتم بالكره، أما التخلص من الصومعة فعل تحركه رغبة فى محو آثار الماضى.

fb/mashro3pdf

الفرق شاسع يا فرحانة . .

تصل لتلك النتيجة بنفسها ، فتبرك بجوار المبخرة ، تلصقها بصدرها ، بحيث تكون قريبة من دقات قلبها ، فيعود الهدوء يحط على قسمات وجهها ، يروق لها المشهد وذلك الشعور ، فتغمض عينيها ، وبتركيز تحاول التقاط ذكرى بعيدة سعيدة تجعلها كثمرة حلوة تسرب مذاقًا مسكراً يحط على صدرها فتمحو المرارة الكامنة بداخله . . الحركة التى فعلتها انتحت بها نفس الطريق الذى كانت فيه ، كأن اللحظات تقول لها إنها لن تسمح لها بالوقوف على الشاطئ الآخر . .

من كوة صغيرة ترى الناس ، كتلة واحدة من اللحم النهم للفرار من أيدى جزار غشوم ، وهى بين تلك الكومة مذعورة تحاول النفاذ من فرجة تصنعها بجسدها المتشبث بالفرار ، إلا أن الموج الهادر من البشر يصر على سحبها بين طياته . تلمح بعين رأسها ضلفتى باب حانوت عبد الحفيظ يسحبان للداخل ، ليتم تزاوجهما ، وينبت السؤال . . ماذا أنتظر . . ؟ . . الفرم تحت الأقدام . . أم الموت بأيدى العراة . . يتردد السؤال . . . فيحيل جسدها إلى كتلة من نار ، تنطلق ، وكالسهم تلحق بالحانوت قبل أن يغلق . . يعانقها على شوشة وعبد الحفيظ ، ويلقيان عليها السؤال ماذا هناك ؟ . . ولأنها كتلة من التوتر ، لا تستطيع الرد ، فيتركانها حتى تسترد الهدوء ثم تكلمت .

قالت إنها رأتهم يقبلون ، فى أوساطهم المآزر ، والخوذ الخوصية

fb/mashro3pdf

فوق رءوسهم، ودرقا من الخوص قد حشيت بالحصى والرمال. وفى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأخضر، قاطعها على شوشة وقال إنهم العياق، الكلمة جعلت عبد الحفيظ يقول هذا ما كان ينقصنا .. ويسأل فرحانة:

- هل نجحوا ومالت كفتهم..؟

رد على شوشة بثقة:

- لا أظن، فكم من حركات ضخمة تم إخمادها، فكما سمعت هم عراة وجند الكاشف بأسلحة..

وسط هذا اللغط والجدل، يصلهم صوت يعلن أن الكل فى مأمن..

يفتح الباب فإذا بالناس بالقرب من الجدران، وفى وسطهم بعض العراة، تحيط بهم خيل الكاشف، وصوت أحدهم يأمر بقطع أعناقهم..

على شوشة يدير وجهه حتى لا يرى ما يفعل بهم، يستوضحه عبد الحفيظ، فيقول على: إنهم أهل أمانة وجلد، وما جاءوا هنا إلا لمساعدة الناس، وأضاف قائلا:

- لو نظرت لوجدت أن لهم نفس ملامحنا، فليس من المستبعد أن يكونوا من أهل البلدة الذين خرجوا منها تحت وطأة المغارم والأوبئة ..

fb/mashro3pdf

(١٦)

الدار القابعة تحت شجرة السنط تبدو وكأنها ندبة فى وجه تأكله شمس الصيف القداحة، يحيطها هالة من الشفق الأحمر، يفارقها ويرمى بعينيه على الملقة المحتقنة بالدخان وبالأشياء التى ترتفع مشتعلة، ثم تهوى على الأرض أجزاء صغيرة سوداء. . .

ينظر والحسرة تجوب فى وطنها السهل الدوس على أرضه، تقول له إن الحياة التى كانت تؤنس حياتك، ها هى تذبل كالجسد الذى تغتاله لحظات الاحتضار. .

يتصورها جرداء فتخور قدماه ويقعد فى مكانه، ولأنه يعرف أن الوقت ليس وقتًا للجلوس، يتحامل ويقوم و يتقدم من الدار التى بدأت تظهر. .

اللون الأحمر يملأ عليه لحظات يقظته، يريد أن يرسخ لنفسه

fb/mashro3pdf

ويصنع وجوداً يعادل وجوده فى كوخه حينما دخله وقت رحيل الشمس، ولمح السروال الأحمر بجوار أحد الصغيرين، برك بجواره، لمسه فذرفت عيناه الدموع، وقال:

- البرهان..

ظل يقلبه بين يديه، ثم ألقى به، وركن ظهره إلى الجدار القريب منه، عيناه على وجهى الصغيرين، يتابع صعود وهبوط صدر كل منهما، يقلب الموضوع الذى وصل لحد لا يمكن السكوت عليه. فخصوصيات الكاشف خط أحمر لا يجب تجاوزه، الخطر يكمن فى تلك المنطقة، فالقصر- المشيد بعيداً عن البلدة- يحاط بالكثير من الجند المدججين بالسلاح خلف أسوار عالية، تعززهم قوة من الكلاب التى يختارها الكلابزة(١) بعناية، والتى يجب أن تتوفر فيها الشراسة..

التصور يدفعه إلى طرق باب السؤال.. ماذا لو وقع الصغيران بين فكى أحد الكلاب..؟.. سؤال لمجرد ظهوره على السطح، جعله ينتفض ويجلس جلسة القاعد على الحفرة المعدة لقضاء الحاجة، وبيده أبعد القعب المملوء بالدشيشة. منظره جعل زهيرة تربت على ظهره وتطالبه بمد يده لجبر الزاد، لم يمد يده وعندما عاودت إلحاحها قال لها:

-يأكل من لديه نفس..

يحاول التملص من لون الشفق المطروح فى الملقة، فيغرز عينيه

(١) فئة من البشر تقوم بجمع الكلاب وبيعها.

fb/mashro3pdf

فى طيات العتمة الواهنة، وينصت لهروب الضفادع والجنادب، والسحالى، ويسرح. .

(أى حكمة يا على تسكن تلك الأشياء الضعيفة، التى تفر بجلدها خوفا من النار التى لا يوقفها إلا الماء. .).

بالطبع لا رد بداخله يرد عن تلك الهواجس المباغتة، يقرر تأجيلها لوقت يكون فيه رائقًا. . يفعل ذلك لأنه يوقن أنه اقترب من الدار. .

لهفة لم يجربها من قبل تعرف طريقها لنفسه، تدفعه إلى مد خطواته بلهفة شديدة. . هذه اللهفة يختلط عليه توصيفها، فهى بداخله لا تخرج عن كونها لهفة العائد لداره بعد غيبة، أو لهفة المدافع عن ممتلكاته من هجمة تريد نزعها من حوزته، هو لا يهمه السبب، المهم أنه نجح وها هو يصل إليه، كان سيندم كثيراً إن لم يقبل على فعله. .

سرعته تعد رغبة منه فى كسر حدة ذلك المشهد القديم القريب منه الذى مازال يؤرقه، وكأن الأيام تجدده بمشهد الحريق الظاهر له، الفرق بين المشهدين هو التوقيت، فالنيران التى أكلت بلدته كانت فى عز الظهر، أما النيران التى تزيل الأرض ها هى تنطلق فى جنح الليل. .

مرات كثيرة أثناء عودته بعد انقضاء يوم عمل جاب فيه القرى القريبة، كان يمشى نفس المشية، شوقًا لصدر زهيرة، وصورتها وهى تأخذ رأسه، تلصقه بجوار قلبها، ويدها تمتد تمسد وجنتيه، تمحو بلمسها تعب اليوم يهز رأسه، ليتخلص من تلك الصور، ويدير

fb/mashro3pdf

عينيه، يرمى بنظرة على الأرض المحترقة، يتخيلها تشهق، والفضاء من فوقها يشهد على انتهاك سطحها بما يفعله راكبو الجياد..

ها هو البيت يدنو منه. ...

قال لزهيرة ذات مرة عن شعوره الأول حينما دخل الغرفة الوحيدة القائمة تحت شجرة السنط (بلا سقف كانت) .قال إنه شعر بروحه تُرد إليه لما وجد جسده- أخيراً- بين أربعة جدران بعد طول تشرد. ..ضحكت زهيرة وأخبرته:

-لهذا السبب لا تسرح بعيداً، تظل تجوب القرى الملاصقة للبلدة، ولا تذهب بعيداً، حتى لا تُجبر على المبيت فى العراء..

أصابته عدوى الضحك فضحك، وأخذ يضرب فخذه بيده وقال:

- من جرب النوم بين الأموات، قد يأتى عليه يوم يظن نفسه أنه منهم، لكنه يختلف عنهم كونه يواجه حياة النهب والسلب، يعيش حياتهم، ويأكل فتات أولاد الناس، وفى أوقات معينة ينتحى جانباً، يجلس مقرفصاً، يفعلها ويقوم..

ثم سكت قليلاً وقال:

- اعلمى أن المرء حيث ثبت لا حيث نبت، وهنا أنا أحسست أنى ولدت من جديد. .

عرفت زهيرة أنه يخشى فقد البيت بمقدار يعادل خشيته للنيران، و السوط المسقى بالزيت، وكذلك الفيضان وحمرة مياهه الذى يشبهه بالحدأة التى تنقض على الأفراخ، فتخطف أحدهم، فتطير به، قد يحالفه الحظ ويقع من فمها على أرض رخوة فيكتب له

fb/mashro3pdf

الحياة، أما إذا وقع على صخرة، فعليها يلقى حتفه..

ذلك الإحساس الساكن بداخله وضعته تحت عنوان الخوف، من جانبه قال (ليبعد ذلك الوصف عن نفسه):

- ليس خوفًا صدقيني، لكنه الحب، فالبيت ما هو إلا أنفاس تتردد بين أركانه، فتلصق الشقوق، لتعمل عمل الدعامة التى تربط بين الأجزاء المتباعدة، فتحول دون انهياره. انظرى. .كم الشقوق التى فى البيت..

نظرت زهيرة، شاهدت كمًا هائلاً من الشقوق، قامت إلى قطعة من الأرض فجتها وروتها بالماء، وبعد أيام خلطت طينها بتراب الطريق الممزوج بروث البهائم، وبه سدت كل الشقوق، تركتها حتى جفت، ولما نظرت فإذا بشقوق صغيرة ظهرت على الأجزاء التى تم تليّيطها، أكلت الدهشة وجهها، بينما على فشخ فمه وقال:

-هو الحب يا زهيرة لا أكثر ولا أقل.

لم تسكت وكانت تعاود بين وقت وآخر فتح نفس الموضوع

يقصد الباب الموارب، يصدمه مواء خافتٍ، يقف للحظات ثم بهدوء يدفع الباب، يغوص جسده فى العتمة المعجونة بالصمت..

حاجز العتمة، يذكره بتلك الليلة التى حط فيها بخرجه، ورقص رقصة الحاوى، يومها كانت معالمها واضحة: أرضية متربة وجدران مشققة، ينقصها السقف، أما الليلة فالمجسمات الظاهرة له شائهة، غير واضحة.

يعلم أن الحجرة فيها أشياءً كثيرة، أشياء يعرف مكانها: صومعة

fb/mashro3pdf

فارغة فى الركن المقابل للباب، وصندوق قديم على بعد خطوتين من العتبة، و جوال به أعشاب ملقى بجوار الصندوق، وآخر فيه الجير والزرنيخ تحت الكوة الوحيدة فى الحجرة.. يشعر بالتوحد مع تلك الأشياء المتجسدة له والتى تعطيه كامل وصفها، وحيز وجودها..

بخبرة السنين المكتسبة بالعيش فى كنف ذلك البيت، يحط قدميه تحت عتبة الغرفة، يقرر إغلاق الباب الجريد قبل أن يتحرك فى الظلمة المتشابكة.

ولأن المكان مكانه ولأنه يعلم كل شبر فيه، يقترب من الجدار، يمرر أطراف أنامله على سطحه، يبحث على الشق القائم أعلى الصندوق، يجده، تغوص يده فيه، ويسحبها وهى قابضة على حجرين، يخطو خطوة واحدة، بعدها يبرك، يأخذ من جوال الأعشاب قبضة عشب، يضعها على الأرض، يضرب الحجرين، ينطلق شرر، يمسك بالعشب الجاف القابل للاشتعال فيشتعل، وينظر...

المشهد يصيبه بصدمة، فيعجز عن الكلام، يغمض عينيه، ويتمتم بتعاويذ يحفظها، لطرد الخيالات التى عاودته و التى تصر على مضايقته منذ مغادرته الأكواخ..

ينتهى، يمرر أصابعه وهى مفرودة على وجهه لإكمال مشهد التبتل، يفض التزاوج بين الجفون، يجد المرئيات الجاثمة فى الأركان لم تصرفها التعاويذ، فيطيل النظر فيها بعينين تسكنهما الرجفة:

(الفرق بين الخيال والواقع يا على شعرة، من يميزها يصل

fb/mashro3pdf

للحقيقة، ويعرف الفرق بينهما، فدقق النظر لتعرف) . .

يسكت حديث نفسه، يتفرس فى الوجوه، يجد وجهى القطين الصغيرين يكتنفهما الكثير من الخوف الظاهر جليًا فى: انطفاء العينين، والتجاعيد الظاهرة بوضوح حولهما، من المظهر الخارجى يثبت لديه أنهما هما، يحوطهما، ويود لو تقدم منهما وأخذهما فى حضنه ليدخل فى روحيهما الهدوء، لكن كيف، وهو يعلم أن الاقتراب يعنى الفناء. .يتركهما، و يحوط جسد الذل القابع فى أحد الأركان، والمسكون برجفة، والمبرقش بحروق تحتل أجزاء كثيرة منه. . . يتركه ويلقى بنظرة على كومة الثعابين، المتباينة من حيث الأحجام. .

يرفع الذل عينيه، يخدش بهما وجه على المصدوم، الذى بدوره رمى بعينيه على صدر الذل المحترقة غابة شعره التى كانت تنام على براحه، وأخذ يتكلم بصوت تخنقه الدموع:

- تناوبوا علينا يا على، استباحوا الأرض البور، فاحترق الطير، الذى كان يذكرنا بطيرانه بكلمة نسيناها يا على. .العصافير ماتت يا على، احترقت، فيهى لا تخطئ. .

ثم يشير إلى القطين:

- حافظ على النبع يا على. .

ينظر على إلى القطين فيحمد الله على النجاة من الحفرة التى حفرها لهما الكاشف. .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١٧)

(حياة تعودت عليها، يمكنك تغييرها يا عبد الراضى، أنت بالطبع على الطريق، فتحللك من الخوف الذى كان يحجمك بداية، والفضل يعود للقطين، هما من حرك فيك شجاعة كنت توقن أنها فارقتك بدون رجعة، نظرة الفزع التى لمحتها فى عينى الكاشف حينما مرق القطان فوق سماطه هى السبب، لولا وجودك برفقة العدول، ما تيسر لك رؤيتها، قلت لنفسك مخلوقات ضعيفة هى من استطاعت كسر الحلقة التى يسيج بها نفسه، والمعضدة بالمرسوم والرشاوى.. كان لا بد أن تذهب إليها، العيش والملح يقول ذلك)

يُسكت ذلك الصوت العالى الذى يُطمئن قلبه، ويدك جنبى الحمارة، لتمد خطوتها ليبتعد عن أرض البور المغطاة بالنيران..

fb/mashro3pdf

ومن باب تثبيت ما قاله الصوت المتردد بداخله، يشرع فى استعادة تلك اللحظة، التى بدأت بملاحقة العيون للأيدى الخبيرة فى صنع ونقل الأطعمة ذكية الرائحة، ومتابعة الرجل السمين المنوط بتذوق الطعام قبل أن تمتد إليه يد ؛ ليتأكد من سلامته ومن انضباط مذاقه..

العيون لم يشغلها الرجل السمين الذى من وجهة نظر الشيخ سيد من المحظوظين والمنعمين فى الدنيا، لأن همها انصب على مراقبة تل اللحم المشوى، وهرم الأرز، وصفوف عيش الحوارى المصنوع من القمح المنخول جيداً، والجرة المركونة بالقرب من السماط المحتوية على منقوع الصرم..

كان بجواره الشيخ سيد، وعلى مسافة منهما يجلس نائب الدم بجوار مقدم البلاصية، فمباشر الخراج، والدلال، ونائب نائب الحسبة ثم شيخ العرب فى الناحية..

مد عينيه إلى السماط فى لحظة اكتمال إعداده، تذكر المثل القائل تطعم الفم تستحى العين كاد أن يفشخ حنكه، لولا دخول الكاشف فى الزى الفخيم و الزربون (١) الأحمر المرصع ببعض فصوص العقيق، من تلك النقطة استرد عينيه، ليقع نظره على وطئه الممزق والكاشف لمقدمة أصابعه المحناة بعروق الطين الرفيعة نتاج امتزاج تراب السكك والعرق.. مص ريقه، وطفحت بداخله المرارة فهمس الصوت الذى ينغص عليه حياته..

(لعنك الله ولعن السرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن

(١) الزربون: الحذاء.

fb/mashro3pdf

اشتراك ومن جعلك أميراً فوق رقاب العباد تدوس بذلك الزربون المرصع بعرقهم. .)

لم ينقذه من ذلك الصوت إلا انطلاق صوت الكاشف يدعوهم إلى السماط، بعد أن تيقن أنهم باضوا وأفرخوا الكثير من الشهوة والشوق إلى تذوق ما أعد من أكل. .

هجمت الأيدى على القصاع المملوءة بالثريد المسقى بمرق اللحمة والسمن، لتبدأ معارك الطحن والمضغ، وكأن كل واحد راح يأكل فى آخر زاده. .

وبعد أن أتت الأفواه على مكونات السماط، قامت الأجساد بكسل الشبع إلى المكان المعد لغسل الأيدى، الواقف عند الكاشف والذى راح يعطى كل من ينتهى من غسل يديه صرة بها نصيبه مقدماً من الفردة التى يضاف ما يأخذونه عليها. .

الكل أخذ إلا هو، الذى كان آخر من غسل يديه من المتبقى من الماء وبدون صابون، ومسح يديه فى جلبابه المترب. . ولما جلس فى مكانه، أعلن الكاشف زيادة المربوط لكل الحضور من العطايا السنوية وأنها سارية مهما تعطلت الأسباب، وأن التجهيزات من عنده لكل من يقوم من العدول بتزويج أحد أبنائه، لهجت الأفواه بالدعاء للكاشف بطول العمر وعلو مركزه. .

وكان لا بد من إدخال السرور على الحضور. .

ومن غيره هو يصلح لكى يكون فاكهة الجلسة، ومنبع الضحك. .

fb/mashro3pdf

- قل حكاية خيبة يا واد خيبة..

قالها الكاشف، فاندفع الدم إلى عروقه، وشعر كأنه خرج من تلك القروح والكدمات المحتقنة، الناتجة من الطوب الذى رجمه به العيال وهو يعلن المناشير الأخيرة. .حينما اشتد عليه الضرب، ترك العمار، راح يطلق صوته فى الملقة، لم يسمعه إلا السابلة الذين ساقتهم بعض الأمور لتلك الأماكن. استطاع وقتها على أن يحتال على ملاحقة العيال له، فهل يستطيع الهروب من مطلب الكاشف، هذا ما دار فى خلده فقال للكاشف:

- يا سيدنا سبق لى أن قلتها.

- وما الضرر فى الإعادة.

وينظر إلى الشيخ سيد ويكمل:

- فى الإعادة إفادة، والتكرار يعلم ماذا شيخ سيد.

- الحمار يا سيدنا.

- تمام شيخ كتكوت.

ويستدير ويواجه واد خيبة:

- يعنى هو لم يعرف؟

أيقن أن حيلته لن يجتنبها الصواب، فقال:

-يا سيدنا لو كان يعرف ما سأل، وما كان أبوه يقول له افعل كما يفعل الكلب مع خليلته.

- وفعل؟

- يا ليته فعل، ما كانت التصقت بى الخيبة التى هى خيبته.

- كيف..؟.

fb/mashro3pdf

- فى الليل يا سيدنا وزوجته التى هى أمى مجلية بيد أم زهيرة، راح يلف حولها، يلف ويلف حتى هده التعب وغلبه النعاس .

- ونام؟ . .

- نام. .

- ولم يفعل أى شىء.؟

- لم يفعل يا سيدنا. .

وبعين رأسه شاهد العيون تجتر السعادة فى صورة مياه سقطت منها من كثرة الضحك، تلك الصورة لم يتركها الشيخ سيد فراح يطرق على الحديد وهو ساخن:

- يا سيدنا قد فرحت البطون بالمآكل، وبقى اثنان من أصل أربعة هى للملاذ. .

- ذكرنا يا شيخ سيد بهن.

هكذا خرج السؤال من نائب الدم:

- المسموح الطيب، والمنظر الحسن

- وضح كلامك.

صنع من يده كأسا وقربه من فمه وهو يقول:

- المشروب يا سادة. .

يهم الكاشف أن يأمر لهم بالشراب، فيستسمحه الشيخ:

- صبرا يا سيدنا، لا يصح شراب بدون غناء، وحده كشجرة بلا ثمر، أو كحداء بلا بعير. .

يوافقه نائب الدم، ويقول:

fb/mashro3pdf

- لديك الحق، ففضل الغناء على الكلام كفضل الكلام على الخرس.

دارت أقداح الفقاع (١)، والبوظة، وصدح غناء إحدى الجوارى، التى ألهبت النفوس بجمال صوتها وحسن منظرها، مما جعل الكاشف يأمر بإدخال المزيد من الجوارى الملاح ليرقصن على صدى ذلك الصوت الخلاب..

فجأة تسود حالة من الهرج والمرج لدخول القطين القاعة، لتنشب المطاردة بينهما وبين الكاشف وجواريه حول الفسقية، بعينى رأسه رأى كذلك صور الهلع التى راحت تتردد على الجدر المبلطة بالقيشانى والذهب المموه واللازورد الأزرق الشفاف..

فى نهاية المطاردة شاهد - فى ركن من الأركان -الجوارى وهن شبه عرايا والكاشف يحوط عليهن، والحضور فى حالة شلل تام من وقع الصدمة وهم يشاهدون كل قط قد ارتكز على قدميه الخلفيتين رافعًا الأماميتين، مما جعل كتلة اللحم الأبيض تصرخ، فيصرخ الكاشف فى الحضور يطالبهم بالتدخل، فقام نائب الدم مشهرًا سيفه، وراح يطارد القطين اللذين أطلقا صراخًا كصراخ البشر، المستجير من ظلم ما.

(تلك الصرخات يا راضى جعلتك تدوس فى العتمة، ضاربًا بالخوف عرض الحائط، لتقصد الأكواخ، وصورة القطين تسبق خطوات حمارتك، بلا ذيل كانا، إشارة كانت لك وحدك، تقول لك، اذهب إلى زهيرة وقل لها، الحيطة والحذر..)

(١) شراب يتخذ من الشعير.

fb/mashro3pdf

(١٨)

أشياء كثيرة كتب على زهيرة فى تلك اللحظات المحفوفة بالترقب والحذر: كتب عليها محاربة الهواجس وتحمل تبعات ما سوف يتمخض عن تصرف على واندفاعه هائجًا متخلصًا من كل يد امتدت لمنعه من ارتياد الطريق..

أصعب تلك الهواجس التى كادت أن تقتلها كلام واد خيبة، قال ما قال وذهب، ودعته وجلست على سن المنحدر، تراقب ألسنة النار وهى تائهة، بأمس الحاجة إلى كلمة تُسرى عنها حتى يعود على . .

منذ اللحظة الأولى التى تكشف لها جسد عبد الراضى، يهتز فوق ظهر حمارته، علمت أنه يحمل شيئًا مفجعًا، لأنها تعرفه وتعرف أنه لا يخاطر بنفسه فى هذا الوقت إلا من أجل أمر جلل.

fb/mashro3pdf

غادرت عتبة الكوخ فور رؤيتها له، وراقبته وهو يطوق رجلا الحمارة بالحجال، لاحظت الارتعاشة المستوطنة يديه وهما تحكمان الربط، وملامح وجهه وما سكن عليها من حزن شفيف.. ركنت كل هذا جانبًا واصطحبته إلى الكوخ، أفزعتها نظراته للحشية المسكونة بالطفلين، غضَّت الطرف وفضَّلت الصمت، وتشاغلت عنه بإخراج القعب المملوء بالفول النابت.

وضعته بجواره، وقالت:

- اجبر الزاد..

لم يمد يده إلى القعب، قالت له:

- ما بك..؟

- لا بد من طهارة الطفلين.

بإشارة منه قال لها إنه يعرف السر، وإن الذى جعله يخاطر بحياته حبه للطفلين، سمعت ما قال فدق قلبها، وكاد أن يُخلع من مكانه ويلقى بين قدميها، وأيقنت أن السر قد عرف طريقه إلى ألسنة الناس، وخوفًا من ظهور أى نوع من الارتباك على صفحة وجهها، رأت أن التماسك هو خير وسيلة للانتظار حتى يُخرج ما بداخله، وكان لا بد من سؤاله:

- لم..؟

- الشيخ سيد..

الكلمات مرعبة، فالشيخ سيد ما أن يدخل اسمه فى موضوع إلا ويأتى بعده الكاشف، لكن قبل أن تغرق نفسها فى محاولة ربط ما

fb/mashro3pdf

قاله وما سوف يقوله، لم يكن أمامها من باب موارب إلا السؤال:

- وما دخل الشيخ سيد؟

لمس فزعها، هو من تربى معها، وشاركها طفولتها، ونال ثقتها فذهبا سويًا إلى البحر وسبحا حتى بعد أن ظهرت عليها بوادر البلوغ لم تفارقه، لدرجة أن دميانة كثيراً ما وبختها فى أوقات زيارتها لها، زهيرة لم تكن تهتم، وكانت تقول بثقة إن راضى طيب حتى القشرة . الكلمات لم تكن بقادرة على كتم ما بداخل دميانة التى بالغت فى نصحها قائلة:

-الخوف كل الخوف من الطيب الذى أحيانًا يكون مثل المياه التى تحت التبن.

كانت زهيرة من جانبها تنهى تلك الأحاديث بقولها الحاسم:

-لا يتدخل أحد بين أخت وأخيها..

جملة كانت تصفع الوجوه، فتخرس الألسن، ولا تعود إلى نفس الكلام الذى ظل بضاعة تباع وتشترى فيما بينهم فى أوقات سمرهم بدون أن تسمع هى، بارت بزواجها من على شوشة، الذى كان يقبل على مضض قولها لراضى أنت خالهم . .

- الشيخ لم يعرف.

قال ما قال ليبث الهدوء فى قلبها الواجف، ثم شرع فى وقص ما حدث فى قصر الكاشف، وقال لها رأى الشيخ سيد فى القطط بأن القطط تحمل أرواح من ماتوا، وما دامت تفعل ذلك بالكاشف فهى أرواح من ظلمهم، ومن ظلمهم الكاشف بعدد شعر الرأس. .

fb/mashro3pdf

- هذا بالنسبة للشيخ سيد، فماذا تعرف أنت..؟

لم يلف معها، فتح الباب و فتح قلبه كما يفعل دائمًا، لا يخشى من رؤية عيوبه فهى كما يقول عنها إنها المرآة التى لو نظر فيها لرأى وجهه.

قال إنه من نظرة مدققة للقطط عرف أنهما روحان لصغيرين، ومن الاتجاه الذى سلكاه عرف أنهما من خارج البلدة ولأنه يعلم كل الناس ويعرف الأكواخ وما بها من أولاد يُدعى فى سبوعهم ليتناول عقيقتهم التى لا تتجاوز العصيدة أو البغلية، عرف أنهما هما..

أثناء كلامه كان يراقب وجهها المسكون بالحسرة، ليقينها بقرب نهاية الطفلين على يد رجال الكاشف، فعزم على شدها من حيز الخوف المكلبش بقلبها، فبحث فوجد بغيته فى الشيخ سيد، فراح يخبرها بالمكاسب التى نالها الليلة من الكاشف، وكيف أنه ضحك مع الذين تندروا بحكايته ولولا أنه من العدول الذين كتب عليهم غض الطرف عن أفعال الكاشف، وأكثر من ذلك مباركتها، لكان هو مكانه وبدلاً من التندر بوالده، كان هو الشيخ سيد من يستحق أن يكون محط سخرية العدول.

من باب الأخذ بخاطره، قالت زهيرة:

- سمعنا أن أباه كان حداداً.

طاقة وفتحت له فتشبث فيها رغبة منه فى تعميق تغيير مجرى الحديث، فقال إن والده كان يصنع المهاميز والحدوة والشرشرة، وبرغم تلك المهنة إلا أن البعيد ابن البعيد كان يعيش على النواشف

fb/mashro3pdf

لا توقد فى داره نار تحت قدر. وذات يوم صنع قفصاً من حديد يصلح لحبس فرد واحد، فأعجب الوالى به وعده من منجزاته الصالحة لقمع كل مارق. فأغدق عليه من المال الكثير، فلم يوسع على أهله، فشكته زوجته، يومها كان سيد رضيعا، حملته أمه وذهبت إلى بيت الكاشف، جد الكاشف الحالى الذى كان فى صدره ضغينة ضد الحداد لأنه تجاوزه وعرض اختراعه على الوالى..

فى حضرة الكاشف أخرجت فردة من ثديها، كانت كجلد مكرمش، لا حياة فيه.، رسم الكاشف الغضب، وأرسل إلى الحداد الذى حضر على عجل وقال له:

- ماذا تقول فى كلام زوجتك..؟

قال:

-لا أقول إلا إن المرأة فضحتنى ولم تصبر على العيش معى..

ثم خفف من حدة حديثه وقال مداهماً الكاشف:

- كما تعلم يا سيدنا كل شىء فى الطالع والغلاء ماسك بتلابيبه فى أجساد العباد، واللحم الضأن بستة أنصاف من الفضة والجاموسى بسبعة أنصاف والحال على العباد صعب، فأنا بالناس وعملى فى رواج إذا راق الحال، وكيف والوباء حل بالبهائم، وهاف الزرع، وقضت الفيئران على الغلة والغيطان..

قاطعه الكاشف متخابثا:

- الحال يروق من بيت مال الوالى.

وأمر بحبسه، وأرسل رجاله فأحضروا الذلعة الموضوع فيها ماله،

fb/mashro3pdf

فلما علم سقط من طوله ومات وراح حاله على من راح، وأخذ الكاشف المال، وأخذت زوجة الحداد ولدها وخرجت كما دخلت، فلم تجد إلا الروث تلمه من الطرقات فتلطعه على جدار البيت، فإذا جف، نزعته وباعته، لتأكل هى والصغير.

كان لا بد من إيقاف سيل الحكايات الذى لن ينقطع من فم واد خيبة، فقالت له:

- الناس معروفة لبعض يا راضى، وأترك من يضحك يضحك..

هز رأسه وهب واقفًا وقال لها:

- لديك كل الحق، فليس بعد التجرد من أضعف مقومات الحياة من شىء يمكن البكاء عليه، لكن من يقرأ ومن يسمع..؟

وسحب حمارته وصحبته لخارج الأكواخ، وعند السن وقفت وودعته، وجلست فى مكانها الذى تراقب منه الآن أرض البور المحترقة، وقلبها تارة يطارد طيفى الطفلين المتجسدين فى قطين، وتارة خلف على الذى أكلت النار صوابه، فاندفع بصدره ليواجه الخطر..

(اللوم على على لأنه لم ينصت إلى الأصوات العاقلة التى لاحقته، تريد منه العدول عن فكرته، قالوا له تريث، حكم العقل، لكن أين عقله يا حبِّة قلبى، فقده منذ تلك اللحظة التى عرف فيها من لسانى المستحق القطع، إذن فاللوم علىّ أنا الأخرى، معك يا على فى مركب واحد فحافظ على اتزان الدفة فى أيام لا يعلم إلا الله اتجاه الريح فيها، قد تكون معذوراً أنت، والطفلان ماذا فعل

fb/mashro3pdf

فيهم ليفعلوا كل هذا؟

صحيح أنهما رضعا الخوف منى، ومن لمساته وصلتهما كل مخاوفه، ومن الهواء تنسما الهواء المحمل بالأوبئة والكره، والزهد فى حياة هى الموت بعينه. .)

وتكف عن الفكر، وتعود لتراقب الطريق، لا تجد أثراً لواد خيبة، لكن يفزعها صراخ عال، ترهف السمع، تتأكد أنه يخرج من كوخها، تهب واقفة، وتهرول مع بقية الناس. .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١٩)

الدار منذ مطلع الصباح لم تنقطع عنها الرجل، زاره عطية النجار، جلس بجواره وحبس دموعه التى كادت أن تغلبه وتسقط، ولما وخزه القيد المطوق قدميه، قام وعلى العتبة شهق، فعلمت فرحانة أن الدموع انتصرت فى معركة ظل عطية محافظًا بثبات على كبح جماحها. . .

بعد عطية دخل بسيط، جلس بجوار الحشية الممدد عليها الذل، صامتًا مكتفيًا بالنظر إلى السقف المجلل بالسناج، وبخيوط العنكبوت، وعند خروجه أعلن أنها سوف تكون نهاية للأحزان. .

طول فترة وجوده لم يرفع عينيه فى عينى فرحانة، هى تعلم أنه منذ الليلة التى اقتحم فيها البلاصية داره وسلبوا كل ما بها من حبال

fb/mashro3pdf

وهو دائم الشرود..

وإذا حادثه أحد الناس ليخرجه من صمته، كان ينصاع احتراماً للمسعى الحميد، وبعد انصراف الرجل يعود لسابق عده، لكنه كان دائم الهمس:

- يا ليل امتد، فبعد قليل سوف تشرق الشمس

كل من يدخل يقول:

- حمد الله على سلامة الذل

ابتسامة باهتة ترسمها فرحانة على وجهها الذى لم يشرف حتى تلك اللحظات بمغازلة البشر له، وكأنه ما عاد وكأنها لم تنتفض انتفاضة خاطفة، عندما فتحت الباب بعد خبطات هامسة على الباب، جعلتها تنزعج ويقع قلبها تحت قدميها، ويجف حلقها فلا تقدر على فتح فمها، لتستفسر عن اسم الطارق، حاولت لتقول من..؟ .. وبعد محاولات، وصراع مع لسان سكنه الخرس المفاجئ من أثر صدمة الخبطات، قالتها، لتخرج واهنة، لم يسمعها على ، فعاود الطرق، وعادت هى إلى الهمس الغير مسموع، فى النهاية تخطت الحاجز فلصقت فمها على لحم الباب. وهمست متسائلة:

- من..؟

أجاب على:

-أنا.

- أنت من..؟

- أنا على..

fb/mashro3pdf

- أى على؟

- على شوشة .

من نبرات الصوت، استقر بداخلها بما لا يسمح للشك أن الصوت صوته .

فتحت، فإذا بالمسافة التى ظنتها طويلة قريبة منها، وإذا بجسدها المسيج بأرق ليلة لم يمض منها إلا ثلاثة أرباعها يقف خلف نافذة بمقدار الفتحة التى أتاحها لها الباب، منها رأت بعينى رأسها وجهه، حدثت نفسها بأن ما تراه قد يكون من نبت قلة النوم، فزاوجت بين الجفون، ولما فضت التزاوج، وجدته بشحمه ولحمه، أمامها، فقط كل ما عليها أن تمد يدها وتجذبه، جذبة واحدة، يجتاز بها العتبة، فيكون مزروعًا فى صدرها، تسكنه بالقرب من القلب، لتتناغم دقاتها مع دقات قلبه، لكنها لما دققت النظر وجدته متسانداً على على شوشة ، والإعياء يظهر فى عينيه، خففت من وطأة الفرحة المباغتة، وكأنها تقول :يا فرحة ما تمت خطفها الغراب وطار. . .

قالت لعلى :

-أليس غريبًا أن تفعلها أنت . . ؟

- وما الغرابة فى ذلك . ؟ !

لم ترد، فواصل :

- لأنى لا أنتمى إلى البلد؟

سارعت إلى نفى ما قالت :

fb/mashro3pdf

- لم يكن قصدى ما قلت، فأنت تعلم أن زهيرة زوجتك هى أختى، ولكن دهشتى يقف خلفها تاريخ.

- ما هو..؟

قالت إنهاذات يوم أخبرت زهيرة أن الرجل لا يفسد إلا بواسطة رجل مثله.

قاطعها قائلاً:

- وهل أنا كنت السبب فيما حدث للذل؟

- ليس بالطريقة المباشرة.

- وبأى طريقة إذن..؟

- بما كنت تحكيه له عن البلدان التى كنت تمر عليها قبل أن تقيم بيننا وخصوصا تلك الثورات التى كان يقوم بها الحرافيش فى المحروسة.

وهو يهم بالخروج قال لها وهو يبتسم:

- إن كنت ضيعته فها أنا قد أرجعته.

نظرت إليه..

أيقنت أن الحقيقة واضحة أمامها، لا تحتاج إلى كلام كثير، فأقل القليل يكفى لتعلم أن مطاردتها له وصلت لنهاية لم تكن فى الحسبان وهى أن يعود ويرقد فى فراشه، بنفس الصورة التى غادر بها البيت منذ ثلاثة أعوام، يومها غادر بجلباب نظيف، بدلته السنون فعاد بجلباب قذر و ممزق، كان لا بد من تغييره، فقامت بتمزيقه، وتغييره بآخر نظيف..

fb/mashro3pdf

وهى تقول بذلك الفعل قدر لها أن تلامس جسده، لم تنتفض تلك الانتفاضة التى عودها عليها فى كل مرة كانت تلمسه فيه، انزعجت لعدم حدوث تلك العلامة الدالة على التواصل الذى لم تصل إليه وهى تجلس بجواره الآن، مكتفية بملاحقة جسده الساكن، ورأسه العارى، وشفتيه اليابستين، والأسى الفارش على وجهه الجاف والمبرقش بالبقع الحمراء..

ما تقوم به يجعلها فى عزلة عن جسده الممدد، ولا تسمع إلا كلمات على وهو يفارق البيت وبيده جرابه:

- قيديه حتى لا يتكرر مشهد العالم الماضى.

فزعت، ورفرف قلبها بين ضلوعها، حاولت الفكاك بنفسها من قبضة المشهد، لفت ودارت، لكنها أبحرت مجبره لتعيش التجربة. القديمة..

طاردها الصوت، جعلها تترك كل ما فى يدها، لتخرج تبحث عن مصدره، فتواجه بوجه بسيط ويده تعبث فى سيالته كأنه يداعب بعض عتقه، كلمته من داخل العتبة، فطالبها بتخطيها، فعلت، وقال لها انظرى، فنظرت فإذا بضجة تقترب من الدرب وجند نائب الدم يحدقون برجل يركب حماراً، فوق رأسه تاج من سعف النخيل سحنته غير واضحة من أثر الدقيق المرشوش على وجهه، يمسك بيده جزءً من جريدة خضراء، حدقت، فلم تصل لشىء..

قرأ بسيط حدود المشهد غير الواضح فوق وجهها، فسألها:

- أهو معرف لديك؟

fb/mashro3pdf

- عندما يقترب سوف أعرف .

ردها جعله يضغط عليها، يطالبها بالنظر إلى صدره لعلها تجد فيه ميزة فتعرفه بها، فنظرت، فإذا بها تعانق غابة الشعر التى لم يكن يمتلكها إلا هو، والتى كثيراً ما خللتها بأطرافها فى أوقات النشوة..

الاكتشاف تلاه دوار، ملك جسدها، سيطر عليها، أفقدها القدرة على صلب طولها، فكادت أن تخر ساقطة، لولا ارتكازها إلى صدغ الباب..

وشاهدته وهو فى ذهوله، والجنود يدقون فوق رأسه طبلخانة، يطالبون الناس بالتبرع لكسوة السلطان العارى، ومن يمتنع يضرب فوق رأسه بالجريدة التى يمسكها.. والعيال من حوله يصرخون: عاش السلطان.. عاش السلطان..

وهو يعلنها أن العصا لمن عصى .

ركزت وهى مأخوذة بذلك المشهد (الذى كانت تخشى حدوثه، والذى كثيرا ما تمنت ألا يأتى اليوم الذى تكون فيه على قيد الحياة حتى لا تراه) فرأت الدموع تجرى من عينيه، ولحيته المشعثة مبللة بالماء، وصدره يرتفع ويهبط فى حركات متتالية، بسيط سحب يده من جيب السيالة وأخرج العتق وهو يردد عاش السلطان، بينما هى وقفت تتلقى الضربات، والدموع تسيل على خديها، لتدخل فمها، فتتلمظ، لتمتزج المرارة بملوحة الدمع المنساب..

fb/mashro3pdf

كرر المشهد، فاحتشدت بقوة مستمدة من مرارة التجربة التى كانت أول من اكتوت بنارها، ونزفت من داخلها أى عطف فى لحظة الخدر تلك، وقامت إلى الحجال، وقبضت على قدميه، فأوثقتهما فى حلقة واحدة، وكذلك فعلت بيديه، بعد أن عقدتهما على صدره، وجلست، مكتفية بمراقبته..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٠)

تنظر دميانة إلى عطية وهو يرفع عدته بهبدة واحدة، فتبتسم، وتقترب منه وتقول:

- كأنك عدت شاباًمن أول وجديد..

يبادلها الابتسام، ويسقط جوال العدة، ويشدها إليه، يضمها إلى صدره فى ضمة قوية، سرعان ما يطلقها، ويقرب فمه من جبينها، يوقع عليه بقبلة حانية ثم يودعها ويخرج ترافقه دعوتها له بأن يستر الرب طريقه، ويبعد عنه أولاد الحرام..

يسير والرائحة الملتصقة بجسده- منذ تلك الليلة التى عاشر فيها دميانة- لا تريد تركه، تطارده، تناوش أنفه، تسرى إلى رأسه، تزرع فيه النشاط الذى عاد إليه على كبر.

فى البداية ظن أنها لحظات عابرة، سوف تغادره تحت وطأة

fb/mashro3pdf

العرق الذى يلفظه جسده، لكن مع مرور الأيام أيقن أنهاباقية، وما هى إلا إشارة جاءت لتقول له شيئًا..

يقف، يقرب أنفه من براح صدره ويشم، يجدها كما هى لم تخف ولم تتأثر ملتصقة بجسده، لا تريد مغادرته..

تبرق فى رأسه فكرة، يستحسنها، ويقول يكلم نفسه:

- ولم لا... قد تنفع..

يقترب من شاطئ النهر، يشلح هدومه، يضعها فوق حجر بارز، ويرمى بجسده فى حضن المياه الباردة التى تلتقطه بحنان مبالغ فيه، وبهدوء وعلى مهل تبدأ فى دغدغة أوصاله ببرودتها، ولما أخذ كفايته، يقرر الخروج..

تحت شمس لم تصل لقمة صهدها يقف عاريًا معرضًا جسده للتيارات الهوائية ليجف..

وبلمسة من يده لجلده يوقن بجفافه، فيقرب أنفه ويشم، يجد الرائحة تقبض على نفس حدتها، فيجرى ويحدف بجسده، يبلله بالماء ويخرج، فيلقى به على التراب، يتمرغ، فيصبح جسده ملطخًا، ويعود ويلقى به فى الماء، يعوم.

يظل يروح ويجىء عدة مرات. .ثم يرفع عينيه، يعانق الشاطئ المطرز بشريط من الخضرة، يسبح إليه، يمد يده، ينزع قبضة من الحشائش ذات الأوراق السميكة، ويعود إلى العمق، يدعك جسده بقوة، ليبعد تلك الرائحة، ينتهى ويخرج، يقف تحت الشمس، يستجيب الجسد لدغدغة الشمس، فيجف بدون أن يفقد الرائحة..

fb/mashro3pdf

يرتدى هدومه، يحمل العدة ويتوجه إلى أرض السواقى القريبة من مكان استحمامه، يقصدها وبداخله رغبة ملحة إلى دميانة التى أدمن جسدها، كرد فعل لإقبالها هى الأخرى عليه....

يقترب من أرض السواقى، يتردد بين البقاء والعودة، يطول وقوفه تحت شمس ترمقه بعينها الحامية التى تدعك جسده بقوة مدغدغة فتحات المسام، فتنشط وتطرد عرقًا يحمل نفس الرائحة المهيجة التى تجعله يميل إلى قرار العودة قائلاً:

- العمل يؤجل أما نداء الرائحة لا يؤجل..

يدخل البيت، يسحب دميانة من يدها وهى فى حالة ذهول، ويدخل بها الغرفة، يريحها بجوار الخوازيق..

ينتهى من أداء الفعل الإنسانى، فتخرج منه تنهيدة قوية، تتجاوب معها دميانة بواحدة مثلها، وتقول فى حسرة:

- يا حسرة قلبى عليك يا مريم والدك وأمك عادا عروسين، وكأن ليس لدينا دم فى رقاب أولاد الكلب..

الكلمات تجعله يلوذ بالصمت، ويشغل نفسه بإعادة بعض الخوازيق إلى الركام، وتعود دميانة تحادثه:

- لا أدرى أحيانا يخيل إلى وأنت معى أنك تحارب فى عدوٍ مجهولٍ

- هذا ما أحسه.

- أريد قوتك ألا تخبو، فإنى أشعر بأن ما تفعله معى بداية على الطريق الذى دلتنى عليه مريم.

fb/mashro3pdf

يقاطعها قائلا :

- ليكن قلبك مطمئناً أن النار التى شبت لن تخبو . .

ويغادر البيت والشمس فى منتصف السماء ، يقول لنفسه مؤنباً :

(لن أعود ثانية ، وأبداً لن أفعل ما فعلت فى مثل هذا الوقت هكذا فى وضح النهار . .)

يندفع بخطوات مسرعة ، يريد اللحاق بأرض السواقى ، لكن بيت الذل الموارب ، يجعله يميل إليه ، لفكرة قد برقت لتوها فى خاطره ، يصفق بيديه وهو يقول يا أهل الله . . بينما عيناه تتعلقان بالماء المراق أمام الباب ، والحاوى على بعض حبات العدس المتخلفة من عملية غسله . .

يرى الدهشة المخيمة على وجه فرحانة بعد أن زادت من فتحة الباب ، فيسرع فى محوها بقوله :

- كل ما هنالك أنى عدت إلى البيت فى أمر من الأمور وأمام بيتكم جاءتنى فكرة ، قلت أعرضها عليك . .

- خير إن شاء الله

ولأن الكلام لا يصح أن يقال هكذا على عتبة البيت ، تتراجع ، فيدخل ، يجلس بجوار الذل المعلق عينيه بالسقف ، يتركه ويواجه فرحانة بما دار فى رأسه :

- كلنا انشغلنا بعودته ، وأردناه كما كان ، وبذلك لم نأخذ فى الحسبان أن هذا يعد ضرباً من المستحيل . .

- ولم هذا المستحيل . ؟

fb/mashro3pdf

- لأن المرض- كما تعرفين -إذا حل بجسد الواحد فإنه يحل كاملاً، وإذا خرج فإنه لا بد من المهادنة وتركه ليخرج كما يريد، وكما ترين الهدوء السادر على وجهه، ويخيل إلى أنه من صنع النار.

يزداد ارتباك فرحانة بسبب ما تسمع، لكنها تنصت - هكذا تفضل - ليواصل عطية كلامه:

- البداية كانت بالنار، والنهاية لا بد أن تكون بها.

- وضح كلامك يا أبا مريم.

- الكي بالنار..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢١)

فى الأكواخ ما عاد للناس حكاية غير حكاية أولاد على شوشة، يربطون الأحداث بعضها ببعض، كى لا تتفرق بهم السبل.

فى جلستهم الصباحية أمام الأكواخ، يمعنون التفكير لا يجعلون حادثًا يكون حاضرا يمر مرور الكرام مهما كان تافهًا، فلا بد من وقفة أمامه، مهملين الحال الذى آل إليه جاد بعد الليلة الماضية، كل من يعلق ناظريه به، لا يملك إلا الدعاء له بأن يتوب الله عليه من شرب المنقوع..

هم يعلمون أن أطراف الحكاية بدأت تلضم لتكون فى النهاية إشارة ما إلى الحياة التى يغلفها الكثير من الكتمان الذى يجاهد على شوشة فى حياكته بمهارة الحاوى..

fb/mashro3pdf

كثيرا ما حاولت إحدى النساء مداعبة الطفلين فى نومهما، فما كان من زهيرة إلا أن ردت اليد بلطف بحجة أنهما يحلمان ولا يجب إزعاجهما.. هى قد تخالف ما تؤسس له، تفعل نفس الفعل، بدون أن تأخذ فى اعتبارها ما قالته..

هذا خلاف حضور على شوشة إلى الأكواخ تحت حجة إنشاء علاقة ود بين الطفلين وأهل أمهما، قال ذلك رغم يقينه بكراهية زهيرة لهذا الوضع الذى تمقته، قال ذلك يوم الحضور، ولم يبد من زهيرة أى بادرة اعتذار- تؤكد ما قاله زوجها - عما كان يبدر منها من كلام يغلف بالتوبيخ لأهلها لتفريطهم فى البيوت، وهروبهم من مضايقات الكاشف ورجاله..

أضافوا إلى ذلك بعض الصور المغبشة التى كانت تحدث متفرقة أمام بعضهم، والتى لم تنتشر، لأنهم يعتبرونها أحداثاً عارضة، التى تتراوح بين عدم ضبط إحدى النساء زهيرة ولو مرة واحدة أثناء زيارتهن لها تقوم بإرضاع الصغيرين وبالتبعية ثديها الذى لا يأخذ حجم ثدى من تقوم بعملية الرضاعة، وملاحظتهم التغيرات التى تطرأ على وجهها، فى كل مرة ينقلن لها حكاية من حكايات القطط التى تلاعب الكاشف فى قصره..

هذا كوم والذى حدث فى نهاية الليلة الماضية أمامهم كوم آخر، المشهد مازال طازجًا فى مخيلة كل واحد، يعيد تكوين نفسه ابتداءً من الصرخات التى انطلقت وغيرت السكون الذى كان قد عاد وأمسك بالمكان.

fb/mashro3pdf

اشتدت حركة العيون الباحثة عن مصدر الصوت، الذى دلتهم عليه زهيرة بجريها من مكان جلوسها عند سن الجبل، فتبعتها العيون التى لم تعر جاداً أية نظرة وهو يجثو على ركبتيه أمام قطعة القماش المفرودة، وخلفها يتصاعد الدخان..

شقت زهيرة الحلقة المضروبة من بعض نسوة ورجال الأكواخ حول كوخها المعبأ بصراخ الطفلين..

من النظرة الأولى أيقنوا أن البكاء غير مصحوب بأى حركة من حركات العيون، فقط كانا يضربان الهواء بأقدامهما، كأنهما يحاربان عدواً يتربص بهما..

بلهفة وخوف شدت زهيرة الغطاء الذى كان مرفوعاً، تلك الحركة أتاحت الفرصة كاملة للعيون التى فتحت عن آخره التشاهد القروح والبقع المحتقنة تملأ باطن كل قدم..

- ما هذا...؟

سؤال أطلقته بعض الأفواه المسكونة برعب المشهد، لم ترد عليهم لانشغالها بحمل الماء من المزملة، وعمل ضمادات وإراحتها على أماكن الإصابة، وبعد أن هدأت ثورة الألم لدى الطفلين قالت:

- ربما من فعل مسحوق الزرنيخ، فقد كانا بجوارى عندما كنت أقوم بمعايرته لصنع المسحوق..

رد لم يفلح فى إبعاد العقول عن بوابات الأسئلة، التى فتحت وبدأت فى شق الطرق، التى أوصلتهم فى نهاية الرحلة إلى أن القروح الموجودة فى أقدام الصغيرين هى من فعل النار وأن المسحوق برىء..

fb/mashro3pdf

لكن المشهد قدر له أن ينتهى بقدوم على شوشة وهو يحمل جرابًا معقود الحنك، شق الجمع، وبرك بجوار زهيرة التى أزاحت الغطاء فشاهد بعين رأسه القروح، فشهق شهقة كان لها دوى وخرجت الكلمة التى كانت بمثابة السراج .

- ما حسبته وجدته . .

ضربت زهيرة صدرها بيدها وقالت معاتبة :

- أو كنت تعرف . . ؟

هز رأسه، فواصلت عتابها :

- يا برود قلبك . !!

لم يرد عليها، لعلمه بالعقول المستيقظة، ولكى لا يجعلها تنتبه إلى ما وراء الحروف، فتربط بين ما يجرى، صمت رغم أنه كان يعلم أن العيون التى طوقته كانت تلومه على صمته، وأنها ترسل إليه رسالة بليغة، حملتها مضمونًا كثيرًا ما قالوه له وهو أن الطفلين هما مثل أولادهم وهم لهم فيهم أكثر مما له هو وزهيرة . .

هو تجاهل تلك الرسالة بقوله : الصباح رباح . .

تفرقوا، وها هم ينظرون إلى على شوشة الجالس بالقرب من جاد الذى يشرب بنهم من منقوعه . .

هو لا يعيرهم أية أهمية، فخاطره يرمح فى طرقات البلدة خلف منظر القطط المقتولة بأيدى الناس تملأ الطرقات، يبحر مع اللوحة فيرى الأيدى وهى تلقى بالقطط، فتصفعها الأرض فترتفع ثم تعود وتصفع حتى تلوذ بالصمت وسرسوب من الدماء يخرج من أفواهها

fb/mashro3pdf

مرعوب يعود من ركضه في الشوارع تحت ثقل خاطرة حاول تجنبها، والتي إذا ما سمح لها بالتواجد ولو لثوان لمجرد رؤية القط الذى بلا ذيل فى طريق ما، فإنه سوف يلقم شفته السفلى بين أسنانه، ويدوس ولا يطلقها إلا إذا ما علم الألم فيها..

ها هو المشهد يتجسد له، يصرخ صرخة محدودة الدوى، تنتبه إليها زهيرة، تهرع إليه، تحاصره بجسدها من الخلف، تهزه، فيعود من غفوته، ويظهر لها كأنه يعود من رقاد طويل، تحرك يدها جيئة وذهابًا أمام عينيه، لتعيد إليه انتباهه، الذى يسترده، ويحاول الكلام، فتتعثر الحروف، و تتداخل، فلا يخرج منه إلا مأمأة، لا تؤدى إلى كلام مفهوم، وبدون أن تتدخل، يقوم هو بدعك وجهه بيديه، يبث الحياة المستلبة منه، ويواجهها ويقول:

- لم أستطع أمام المنظر.

- أى منظر..؟

- القطط.

- القطط؟

- صورة كلما حضرت ورأيت قطًا بلا ذيل وسط كومة من القطط التى يتم التخلص منها يوميًا، أشعر بروحى تتسحب لتغادرني..

- لهذه الدرجة أصبح الخوف يتحكم فيك؟.

- ليس خوفًا.

- وبما تسميه..؟

fb/mashro3pdf

-حب.

-الحب يا شريك العمر لا يجعلك تخفى عنى أمر حريق الصغار.

- لو كنت مكانى لفعلتى ما فعلت.

- وماذا فعلت غير أن جلبت لهم الألم؟ !

يستدير ويواجهها، ويقول:

فى لحظة ظننت أنه بمقدورى أن أقوم وأمسك بهما، لكن ما أن تقدمت حتى جفلا منى، وظهر عليهما علامات القط المذعور، ولما سكنت مكانى، ونظرت إلى عيونهم ورأيت النظرات المتبادلة، أحسست بمصيبة قد تحل علىّ بين لحظة وأختها إن لم أستخدم العقل.. آه يا زهيرة منها لحظات وأنت تتوقعين المجهول الذى لا تدرين بماذا سوف يأتى، وبين الترقب المشوب بالحذر ولد الحل بإشارة من الذل. .. نعم الذل لا غرابة فى ذلك.. فهو الذى وضعنى على الطريق الصحيح الذى يجب على ارتياده. بتطويحه رأسه جهة الباب فهمت قصده فتنحيت عن الباب، فما كان منهما إلا أن انطلقا كالسهم، وفى فوضى الجرى داسا على جزء من الأرض المحروقة، فسمعت دوى صراخهما..

يسكت، فتشاركه صمته. .

fb/mashro3pdf

(٢٢)

جاد فى مكانه لم يحرك فيهم أى علامة استفهام، ربما لتعودهم على أفعاله غير المتوقعة، وربما لانتظارهم كلام على شوشة الذى يبدو أنه أجل ذلك تحت وطأة المشهد الذى فيه جاد. . .

جاد بما يفعل يخرج عن ناموس الحياة الموضوع هنا والمشتق من ناموس ناس البلد، الذى يمنع إتيان المنقوع بكثرة قد تجلب لصاحبه المتاعب، كونه يكون مغيباً عن الواقع، فيسقط فى المحذور. . .

أصوات كثيرة تعالت فى داخل كل واحد تحرضه على التقدم من جاد ومنعه من التمادى فى الشراب. .

الصوت يقول: تقدم .

والنفس ترد: نخاف صوته العالى الذى إذا ما جرده، فهو كلدغات الثعبان. .

fb/mashro3pdf

رغم هذا فالكل يعرف أن تلك الحالة ولدت من رحم الليلة الماضية التى كانت بدايتها تبشر بأنه سوف يكون فى أحسن حالاته..

العجوز صانعة القريللا.. تقوم تمر على الشاخصة أبصارهم إلى جاد وتقول:

- أخيراً أنتم تدخلون الامتحان، توزن أعمالكم، فيا خيبة من تخف أعماله.

تقول ذلك وتقف، تستند على العصا جيداً وتهز كتفيها، وتمضى لتعيد ما قالته، وتفعل نفس الحركة، وعندما تصل إلى الذل تقول:

- أنت أولهم..

يكاد يطلب منها أن تسكت وتكف عن الكلام الذى يزيد من الحزن، لكنه يتدارك نفسه، يفضل السكوت خوفًا من دخوله فى حوار قد يؤدى به إلى كشف المستور الذى بدأ يبزغ للعيون.

يكتفى بالتربيت على كتفها وقوله لها:

- ربنا ما يحرمنا منك..

يغادرها، ويخطو إلى جاد، يعانق وجهه المرهق والمغسول بالدموع التى ما زالت تنهمر، ويرى سرسوب من المنقوع ينسال من شدقيه يعبر ذقنه ليسقط على رقبته ويبحر عبر عظمة الترقوة، ويغيب بعدها تحت الجلباب.

يجثو على على ركبتيه، يقرب ذراعيه منه، يريد ضمه إلى

fb/mashro3pdf

صدره، لكن جاد يبعده بيده، من قوتها، يهتز ويفترش الأرض..

نظرات الناس تتسع.. فتعلو همهماتهم.

ويفتح فمه.. ويتكلم..

(من نظرة واحدة عرفته، كان هنا بالأمس متخفياً فى عباءة عابر سبيل، عرفته فكثيراً ما تلاقينا سوياً، وكثيراً ما كانت له الغلبة، كان يضاجعنى ويبلل سروالى ببولى.. أمر غريب هذا.. أليس كذلك..؟ . أن يفعلها رجل بالغ مثلى على نفسه بدون أن يلعب بالنار، حتى وبدون أن يتبادر بذهنه الدخول إلى عالم المحظور من الحكايات.. فأنا مثلكم إنسان جدارى.. بل أنا ممن يسيرون بداخلها..

أنتم لا ترونه، لكنكم تشعرون به، وتتجنبون منازلته وجهًا لوجه، ذلك لأنكم تخشون المواجهة، وظلاله تمتد فى داخلكم، يضاجعكم كل يوم أكثر من مرة ليريكم مدى فحولته وقوته، وفى نهاية كل مرة تثمر المضاجعة عن بذرة اسمها الجبن. تنمو فى أرضكم العفنة، مثل أرضى تماماً، التى أردت تغييرها بالأمس..)

يسكت ويدير عينيه، يتفحص الوجوه المهمومة والحزينة للحال الذى أصبح فيه، يلمح الدموع المترقرقة فى عيونهم، والحيرة المنزوية على الوجوه التى تحاول تصنيفه.. أهو من ضمن العقلاء..؟ أم أنه انضم لزمرة المجذوبين..؟..

يقف كثيراً عند وجه ملاعب الثعابين القريب منه جداً، وزوجته التى تقف على رأسه، يكتفى بالنظر إليهما للحظات ثم يعطيهما

fb/mashro3pdf

ظهره، يتناول القعب، يرتشف منه منقوع أبو النوم ، لا يكف حتى يخر المنقوع من شدقيه، ويسقط على ذقنه، ثم على عظمة الترقوة، ثم يغيب تحت هدومه.. سرعان مايعود إلى الجمع المحدق به، يصرخ فيهم، بينما يده تشير إلى أرض البور:

(انظروا، ها هى احترقت، احترق الصدر الحنون، لمن يعضه الجوع منكم، فكان يقصدها يمد يده فتعطيه حشيشها الأخضر، يجمعه فى ربط، يجففه ويبيعه.. آه.. الآن لا صدر لكم.. احترقت لأنه شعر بكبر حجمه، وعرف أن الأفواه المكممة، لا. .لا أقول كل الأفواه، بل البعض منها، راح ينتف فروته. .تعرفون لِمَ لم أقل الكل؟.. لأنه كما قلت لكم إنه قريب منكم كالهواء.. لا بل هو الهواء نفسه.. الهواء الفاسد الذى يملأ صدوركم، كرائحة الفساء هو.. تخافون منه.. فكيف تخافون وهو الخوف.. الخوف يا معشر الذباب الذى يحط على بقايا الأسياد. .. ترضون بالفتات لأنه يساق إليكم بسهوله، تلك ليست بالعيشة، بل هى الموت. الموت الحق، ..فالدنيا يا ذباب الأرض ليست دنيا الكسل والوخم، الدنيا تكتب لكل صاحب ظفر يعرف الهبش)

ينتهى ويقوم متمايلاً ، يتجه إلى كوخه، تاركًا خلفه أرضاً ملساء من الهمهمات..

fb/mashro3pdf

(٢٣)

تلمح وجهه يجيء ويروح تحت نتف من ضوء الشمس المتسربة من بين فرجات السقف، يخيل إليها أنها بمثابة أصابع تخفى الوجه..

تراقبه جيداً وتهتف:

-إنك تتحرك..

كلمات تهتف بها وهى تلمحه يتململ على الحشية، تصدر منه الحركة الأولى، تقول لنفسها أول الغيث قطرة، وكل شيء صعب فى بدايته.

وتمد يدها، تربت بها على صدره ويتعلق وجهها بعينيه الذابلتين، تقرأ بداخلهما كتاباً يعيد تشكيل نفسه..

هناك أمر آخر يطفو على السطح، يبرز من عينيه، عبارة عن

fb/mashro3pdf

نظرات يستجدى بها، تقترب منه، فيزيد من تحريك رقبته ذات اليمين وذات الشمال فى حركات متتالية..

- ماذا تريد يا حبة العين؟.. آه لو تكلمت..

تنظر إلى رقبته التى يحركها، تمد يدها، تلمسها، فيميل بها ويضغط على عظمة الترقوة فى إحدى الجهات، فتنقل أصابعها إليها، تعثر على نملة فارسية، تنتزعها وتنهى حياتها.. تتعلق بالمنطقة التى كانت تلتصق بها النملة، تمد يدها تمسدها، وتعانق الوجه الذى عاد إليه الهدوء، فتكلمه:

- ها أنت تقولها لى إنك تحس، أكمل جميلك علىّ وانتشلنى من حيرتى، لينبت عشب الأمل على أرضى اليابسة.

تسكت وتهم بسحب وجهها من على وجهه تاركة الهدوء الذى عاد وفرد خيامه على وجهه الشاحب، تلمح غابة فى تلك الحركة الارتدادية غابة الشعر تغطى فتحة أذنه، تتمنى فى تلك اللحظة لو تيسر لها أن تُعمل فيها الفتلة، فتعيدها إلى سابق عهدها نظيفة ملساء كخد صبية لم يقطف منه نضارته، لكن كيف.؟ هكذا تعود لواقعها.. فتجده يركز بعينيه على القيد، كأنه يرسل لها رسالة، يطالبها بفكه، هى منذ اللحظة الأولى تعرف تمام المعرفة أن القيد لا يروق له، ويسبب له مضايقات كثيرة..

تقرر أن تتركه وتدخل لجوف الدار لإلقاء نظرة على ماعون العدس الموضوع فوق النار، إلا أن خبطات تجعلها تؤجل ذلك..

تشد الباب، فيفتح ويكشف لها عن بسيط، على وجهه ابتسامة

fb/mashro3pdf

ودودة مغايرة لتلك التى اعتادت على رؤيتها، تفسح له فيدخل، وتطلب منه الجلوس بجوار الذل حتى تلقى نظرة على العدس الذى فوق النار، تقول ذلك وتعطيه ظهرها، إلا أنه يوقفها:

- اتركى العدس، فهو فى حاجة إلى المرق.

تلتفت إليه وتقول بصوت يضمخه عجز الحيلة:

- ومن أين لنا باللحم وليس فى البيت ولاصياحة (١)واحدة؟

- لا تحملى همًا لذلك..

تشمله بنظرة، تكتشف أن فى يده جرابًا، هو من جانبه وبنظرة ابن السوق يعرف الحيرة التى تلبستها، فيرفع يده، يقرب إليها الجراب ويطالبها بأخذه.

- ما هذا...؟

- أرنب.

- وما المناسبة..؟!

- اذبحيه للذل.

يمد يده أكثر، فيصطدم الجراب بيدها فتشعر بطراوة الأرنب، ويوضح لها أنه لم يعد له أى مأرب فى أكله بعد ما حل بالبلد، ويضيف إنه كان قد اشتراه من أجل قضاء ليلة عند الضامنة فى حاضرة الولاية، تلك الفكرة بددها البلاصية، بما فعلوا وأن جسد الذل هو أحق منه به، ينتهى فيلمح ابتسامة تولد على شفتى فرحانة، تقول له إن جبال الجليد التى صنعها هو بينه وبين جارته فى طريقه إلى الذوبان..

---

(١) دجاجة.

fb/mashro3pdf

يترك وجه فرحانة ليتعلق بوجه الذل ويقول :

- مرة ثانية حمد الله على سلامته .

توقن أن التغيير طرق بابه ، وها هو أمامها بدون قناعه ، يكشف عن معدنه ، يقول لها بالفعل لا بالقول نحن أولاد اليوم ، والذى فات مات . .

يوقن أن رسالته وصلتها ، فيولى وجهه شطر الباب يريد الرحيل عملاً بالمثل القائل يا بخت من زار وخفف . .

تستوقفه فرحانة ، تعرض عليه ما قاله عطية ، فيقول مشجعًا :

- على بركة الله . .

- إذن فعليك بإحضار الحجام ، فأنا لا أعرفهم . .

- بعد العصر يكون هنا . .

تغلق الباب خلفه ، تشمر أكمام الجلباب ، تخرج الأرنب من الجراب ، وهى غير مصدقة أنه جاء الوقت لتوقد فى البيت نار ، لتتسرب رائحة اللحم الناضج ، فتحرك فيضًا من الذكريات التى ظنت أنها غادرتها بلا عودة بسبب ما رأت .

تقول تحدث نفسها : (لا ضرر . . كل ما فات يمكن تعويضه ، وكله مع الصبر يهون) . .

تذبح الأرنب ، تسلخه ، تقطعه ، وتوقد تحته النار . . وبقطعة من العصا تقلب النار ، فتنطلق ألسنتها ، تطال وجهها ، يولد بداخلها إحساس بأن الحياة عادت إليه من جديد ، فتمد يدها ، تصطدم بالزغب النابت بكثرة ، تقرر إزالته ، فتلوى عنقها لتجذب المقطف ،

fb/mashro3pdf

تلمح المجمرة، نظيفة، ومركونة إلى الجدار تعانقها بعينين بهما الكثير من الحزن..

تكتشف أن غيابها عنه قد طال، فتلقم البوص فوهة الكانون، وتطمئن على أنه اشتعل، فتقوم إليه، تجده قد علق عينيه بالسقف المتهالك والمتماسك ببركة دعاء الوالدين، ذلك الوضع يتيح لها رؤية وجهه كاملاً، فتلمح الكثير من البثور التى تنتهى بقمة دبوسية مسننة، تمد يدها وهى غائبة تلمس تلك البثور، تريد إفراغ الصديد الساكن فيها.. ينتفض، فتتركه، وتتراقص الفرحة على وجهها وتقول: هانت .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٤)

يبدو الأفق المحدق به كسجن لا صوت فيه، يستدير ويلقى نظرة على بيوت البلدة البعيدة تظهر له متلاصقة كتلة واحدة من سواد متشابك..

يقرر الهروب من ذلك المنظر ومن الحر الخانق فى التاية إلى النهر، يعتلى تل الطمى الملاصق للتاية، يرى صفحة النهر تلمع تحت ضوء القمر الخافت، يغمض عينيه، يتخيل جسده ملقى بين أمواجه الهادئة، تدغدغ جسده المكدود، تخلصه من كل أدرأن اليوم..

الفكرة كثيراً ما روادته، لكنه كان يبعدها، على أساس أن للنهار عيونا أما الليل فهو صادم فى سكونه..

يهز رأسه، يبعد الخوف الذى يفتح فى نفسه ثقباً لينفذ منه إليه

fb/mashro3pdf

وينظر، فإذا صفحة المياه كأنها جسد أنثى تطلبه، تفتح له صدرها المتحرر، وكذلك فخذيها، يمص ريقه، يفارق تل الطمى، ويتقدم..

يصل إلى الشاطئ، يخلع قميصه وكذلك سرواله المهترئ..

سواح يمضى جسده مع الموج، إذا ظن أنه ابتعد، حجم نفسه وعاد ليكون بالقرب من الشاطئ، وكالعاصفة الشرسة يتناهى إلى سمعه صهيل خيل حطت فوق رأسه، الذى يرفعه، ليلمح سرواله وقميصه على أسنة سيوفهم.. يستشعر من نظراتهم التى تطالبه بالخروج الشر، يتلكأ فى تنفيذ الأمر، فيستفذ الوجوه الحمراء التى تتبادل الحوار الصامت، الذى سرعان ما يتحول إلى همهمات، تؤدى إلى تمزيق السروال والقميص، فتذهب بلا رجعة دغدغة المرح التى كانت تسكن جسده، ويعانق بأذنه انفلات صبر أحدهم الذى راح يأمره:

- اطلع ولد..

يخرج وهو يدارى عورته الأمامية بيديه، تهيج الأفواه وتدخل فى حلبة الضحك الصاخب. هو وسطهم يلف بجسد تملكته الرعشة، كنحلة رميت بدوبارة، فراحت تلف وتزن، وتزن وتلف.. فى إحدى الحركات تلقى جسده ركلة من زربون أحدهم، فاختل توازنه، فوقع على بطنه، فعلت ضحكاتهم، فتحامل ولف بجسده ليواجههم، يرتجف إذ يكتشف ما يقررون فعله، ..

أصبح الأفق محتقناً بالبوم الناعق، وبدت المساحة المحدقة به مكتظة بالنائحات وهن يرددن العديد المنغم، الذى كان يسمعه فى صغره فكان يحسبه همهمات، لم يكن يميز بين كلمة وأختها، حتى

fb/mashro3pdf

جاء زمن الطاعون، فانتشرت المهمهمات، واستطاع أن يميز بين الكلمات، وحفظ منها الكثير..

من بعيد يأتيه بعضه..

واللى جرى لى ما أقول لحد عليه

لأحطه فى بلاص وأسد عليه

واللى جرالى ما ينكتب ف كتاب

لأحطه فى بلاص وأسد الباب (١)

يتذكر، فيدخل فى وصلة من النشيج المتقطع، وبألم يضرب الأرض براحتى يديه وهما مفرودتان، وظهره العارى ومؤخرته الملوثة بدمه لا يشعر بهما.. يزداد ضربه للأرض إذا يحاول أن يصرخ، فلا يطاوعه لسانه، فقط يخرج اهتزازات وحشرجات، لا تحمل أى كلمة، أثناء الضرب لا يستطيع النظر إلى يديه، لأنهما لم يقوما بما يجب عمله، فكل ما قاما به لا يخرج عما يفعله الصغار فى شجارهم، بعض الخدوش البسيطة التى لا تفلح فى شخب الدم..

يكف عن ضرب الأرض، ويلوم نفسه لأنه لم يعودهما على حمل الهراوات ولا الفئوس..

فى وضع السكون هذا، يصل لأذنيه همس أقدام تمشى على مهل، يحرك رأسه، يلمح بالقرب منه ذئبًا يلهث، يقرأ فى عينيه نذر الغدر، فلا يجزع، ويطالبه بالانقضاض عليه ويعده بعدم المقاومة، ويتأسف له لأنه سيأكل لحمه النجس..

(١) من التراث الشعبى.

fb/mashro3pdf

لكن الذئب لم يتقدم، اكتفى بأن نفض جسده، فطرد الماء الملتصق به، وهز ذيله ومضى..

يضحك واد خيبة ساخراً ويقول: قدر

ويحدث نفسه هل تصدق عرافة السوق، حينما قالت بعد أن داعبت الرمل ووشوشت الودع: نهايتك فى نصلك؟ . . .

يومها صدق ما قالت فحرم على نفسه حمل أى سلاح، ورضى بفرع الرمان يلسوع به جسد الحمارة إذا تلكأت فى مشيها..

يضحك..

يهتز جسده.

فيوغل الألم.

فيكف..

ويدخل فى جب الفكر:

فرطت يا راضى فى السلاح، فأكلتك الكلاب، نهشت لحمك، ودكت عظامك بزرابينها ، فلا ضرر من نهش الأفواه لسيرتك إذا ما طلع النهار، وكشف نوره الفاضح عن جسدك المشلول هنا بجوار الشاطئ ..

يصل لتلك الجملة فينتفض جسده، نفضة تشبه النفضة التى تلازم خروج الروح، فيكبش فى الأرض، ويدفع بجسده، يفعل نفس الحركة، فيتحرك بعض القراريط (بضم إصبعين).. يشعر بأن طريقة الدفع لا تصلح للوصول إلى التاية ، فيقرر دحرجة جسده، فيدوركمدور الساقية، بين لفة وأخرى يُغرز فيه سن شوكة، أو يؤلمه

fb/mashro3pdf

الحصى الكبير، لا يهتم، فقط يردد انتهى زمن الألم .

يصل إلى باب التاية ، يدفع جسده بقوة، فتفتح السدة ويدخل، يرسل عينيه إلى الشق، يلمح اليد الخشبية، يسحبها فتخرج من مكمنها، يعانق نصلها الحاد، ويغمض عينيه، بعد أن حدد مكان القلب، وبدفعة قوية ترتشق، فيسقط على ركبتيه. .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٥)

تستوعب العجوز العائدين من دفن واد خيبة بنظرات تحمل اللوم، لأنهم منذ أن حطوا مؤخراتهم جوارها وهم لا يملكون إلا الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ومن كل ذنب عظيم.

المنظر يجعلها تكف عن تقطيع الرجلة التى تنوى إعدادها، تلك الحركة جعلت العيون تتحرك لتصنع فيما بينها نوعًا من الحوار الصامت، الذى ينطوى على شجب ما قامت به..

العجوز لا تهتم برد الفعل الذى صدر منهم لكونها كفت عن العمل التطوعى الذى اعتادت على فعله، وتبدأ بملاحقة وجوه من حولهابنظرات تقارب نظرات الأم التى تلوم أبناءها لأنهم اقترفوا فعلاً محرمًا..

fb/mashro3pdf

بعضهم يميل إلى تبرير ما هى فيه، وجعله معلقًا على شماعة غضبها الدائم للهفتهم لأكل أشياء أقل ما توصف أنها لا تصلح إلا لأكل الحيوان..

لذلك- من وجهة نظرهم- فالأمر بسيط، لأن الأيام- دائمًا- تمضى بين رغد قليل وشظف كثير.. هى الخبيرة، كان لا بد من أن تغرقهم فى مياه النهر .

- تستعيذون من الشيطان الرجيم ومن كل ذنب عظيم، أليس كذلك؟

- نعم.

- لم؟.

- وهل بعد قتل النفس ذنب؟!.

- من قتل من..؟ .

تتلاطم العيون، فترى الحيرة، فتقول وهى تضحك ساخرة:

- إذن قد غرر بكم.

-من.؟

- ابن بائعة الجلة.

تضيق محاجر العيون دهشة من قولها، فهى تقول لهم إنها تعرف كل ما جرى، أكانت قريبة منهم..؟ كيف وهى لم تغادر الأكواخ؟.. أسئلة تقفز إلى رؤوسهم..

-طبعًا هو دخل التاية.

- نعم.

fb/mashro3pdf

-وقال إنه قتل نفسه.

- تلك كانت شهادته.

- وماذا قال عن السروال والقميص اللذين وجدا هناك عند النهر..

- مُزق طيرتها الريح.

- والله.. أنتم من طيركم، بل وقص ريشكم.

تمسك لسانها، وتعاود قطف الرجلة.. ثم تكف وتخاطب كل من فى الحلقة

- . بالطبع تهفو نفوسكم لهذا العشب، وتشتاقون لرائحته يسربها فتتصاعد محملة بنكهة حريفة. وتنسون أشياء أخرى

وتسكت وتعود إلى ما كانت تفعله، وتنشد بدون أن تنظر إليهم..

قد أقبل العيد وما عندهم

قمح ولا خبز ولا فطرة

فارحمهم إن عاينوا كعكة

تشخص أبصارهم نحوها

بشهقة تتبعها زفرة (١)

جاد يقول:

- الأمر أبسط مما نظن، فلا يهم كيف قتل، المهم معرفة السبب الذى جعله يقدم على فعلته، والسبب يا موحدين، يكمن فى قميصه وسرواله..

(١) شعر السراج الوراق.

fb/mashro3pdf

-ماذا فيهما..؟

- دم..

- دم..؟

-نعم دم..

- هل قالت لك العصفورة؟

-منذ متى العصافير التى يتم نتف ريشها تقول؟.عطية من قال يا من أغلقتم عقولكم.

يقول عطية تعرفون أننا رأيناه ممدداً، وعلى وجهه ظل ابتسامة، بعضنا فسرها على أنها اعتذار لكل مرسوم قام بنشره بصوته، هذا الفريق دلل على معتقده بأنه بالرغم من التجاعيد المنتشرة حول عينيه المغلقتين، والتى لا تنشأ إلا من ابتسامة، وابتسامة عريضة، تلك الصورة لا تتفق مع الفم المذموم..

تنشط العجوز فى قطف الرجلة، وهى ترى ما كانت تلقى عليه شبكتها، قد دخل المصيدة، فتقول لنفسها: السكوت أفضل وترك العقول المستيقظة لتحرق الوخم الكابس على العقول المركونة إلى الدعة..

تمسك زهيرة دفة الكلام:

كان خيالاً، عاش بيننا.. ومضى فى طرفة عين.. يرحمه الله كنا نختلف فيه.. لكنه كان مثل الشمس واضحًا، يصلى خلف الشيخ سيد الذى يكرهه، ويعلم بكل أعماله، وعلى الملأ يكشفه.. رأى الهناء فى كشف الكاشف، فركن ظهره على جدار قصره.. لكنه

fb/mashro3pdf

كان مثلنا يشتاق لكسر الطوق الملفوف حول عنقه.. وجد الفرصة لكنه لم يكن يعلم أنها هى التى تأتى مرة واحدة.. كلكم تعرفونها.. لكن سأذكركم.. ففى الإعادة إفادة..

ذات مرة، بعد أن أدى صلاة الفجر المكتوبة خلف الشيخ عفريت، وفى طريق عودته وجد قاعوداً، أمسكه من لجامه وجره، وقفل عائداً إلى التاية وهو يقول: يظل عندى حتى يظهر له صاحب..

سار خلفه، حتى وصل لمنتصف الطريق، وفجأة يتسمر القاعود فى مكانه، ولأنه تعلم من الكاشف أن العصا لمن عصى، التقط جزءً من بوصة، وفقط أراحها على ظهر القاعود، فى تلك اللحظة تحول القاعود إلى تراب وسراب. وراح فى إغماءة

يقاطعها أحد الحضور:

- كان يجرى خلف الفقر.. آه لو صبر لتحول القاعود إلى ذهب.

ويعلق ثان:

-الفقر يعرف أصحابه.

لكن زهيرة بوجه احتقن من تعليقاتهم تقول متسائلة:

- تعرفون ماذا فعل..؟

-سلسال بعضه من بعض..

تثير تلك الجملة الأفواه للضحك فتضحك.

وجه زهيرة يتحول إلى جمرة من نار، حتى لا ينفجر فى وجوه

fb/mashro3pdf

الحضور، تسكت، وتحول وجهها بعيداً..

تنظر العجوز إلى العيون التى كانت جائعة للبكاء، تجدها تدمع لكن بفعل الضحك كرد للجملة الأخيرة على الحكاية التى قالتها زهيرة..

نادراً ما يضحكون، ونادراً ما تراهم فى صورة جماعية يضحكون بصوت عال، صورة تخالف الموقف العادى حينما تقال مزحة.. ذلك الاكتشاف، يجعل الدماء القليلة السائرة فى عروقها الزرقاء النافرة من تحت طبقة جلد رقيقة، تندفع، وتركض فى اتجاه الرأس.. كرغبة منها لتخفيف وطأة ذلك الشعور النامى، تميل إلى تعليق ذلك الضحك على شماعة شر البلية ما يضحك.

وتسحب عينيها وتغرقهما على الرجلة، تريد إكمال عملية القطف، لكن لا الكلمات ولا الصورة تريدان أن تسكتا، يعملان بعناد على سرعة تحرك الدماء إلى الرأس..

تكف عن القطف، وتنصت إلى ثورة تولد فى جسدها، تريد تحويلها إلى لهب يحرق الوجوه المصوبة إلى الرجلة، لتتحول هى بعد ذلك إلى رماد، يشبه الكومة الملاصقة للكانون المخنوق بقطع البوص المنتظر احتكاك الحجرين.

يتجعد وجهها، فيفقد اللمسات التى تحدده، ويقف شعر رأسها القطنى المسجون تحت طرحة قديمة تطرزها فتحات كثيرة، وبتلقائية تمد يدها التى تتابعها عيون من حولها، يشاهدونها وهى تقبض على الرماد، الذى فى لحظات يستقر فى الماعون..

fb/mashro3pdf

ينفض الجمع من حولها وهم يضربون الكف بالكف، لا يبقى بجوارها إلا زهيرة. .التى تستنكر ما فعلت. .

العجوز تكف عن وضع الرماد فى الماعون وتقول لها:

-أنت كما أنت لن تتغيرى منذ أن تركتِ الأكواخ ونزلتِ للبراح مازالت الحدة تسكن لسانك وبلهجة بها بعض الترجى ترد زهيرة.

- اتركيهم يكفيهم ما يلاقون فى سبيل لقمة العيش التى أصبحت تأخذ من الأسد.

العجوز: وإلى متى يصبرون؟

زهيرة: إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

العجوز: ليس هكذا تكون الحياة !!

زهيرة: قولى إذن كيف تكون.

العجوز: بالعمل.

زهيرة: ولِمَ لا يكون بترك الأكواخ والنزول لملاعب الصبا؟

العجوزساخرة: أنت فعلتيها يوما ونزلت يوم أن قلتى إنك اشتقتِ للحرية، فماذا جنيتِ..؟ لا شيء، أقولها لك، فأنا لا أعد على شوشة ملاعب الثعابين والذى أوقع به جمالك، فقيد نفسه فى ذيل جلبابك بالنتيجة التى تستحق كل المغامرة، التى كان يمكن أن تهلكك لو وقعتى في يد مملوك من أوباش الناس..

زهيرة باستنكار: لكنى حاولت، واقتربت، وعرفت

العجوز مقاطعة: ولِمَا لا تقولى أنجبت.. ؟

زهيرة: آه لو تعرفين.

fb/mashro3pdf

العجوز: ماذا تقصدين؟

زهيرة: لا شيء..

العجوز: قولى، فأنا أعرف خيالك الواسع .

زهيرة: بل الحقائق هذه المرة، سوف تتكلم .

العجوز: متى؟

زهيرة: كله فى حينه

تقولها وتقوم، تتجه إلى كوخها. ، تجلس بجوار على شوشة، وبدون مقدمات تقول له:

- لا بد أن يغيروا الوضع الذى منحتهم إياه الحياة..

- هؤلاء..؟ !

يقولها على شوشة، ويده تمتد إلى خارج الكوخ حيث الجمع الذى عاد وتجمع بالقرب من الكانون..

-نعم.

- أرجوك لا تعودى إلى التوبيخ .

- هذا لن يجدى اليوم .

- ونعم العقل..

- تماماً كما تقول.. العقل.. وأين هو العقل..؟

- احذرى..

يقولها، فتقرر السكوت، فهو الرجل وهى الأنثى، وتلوح أمام عينيها التاية، فتسأله:

- وأغلقتم التاية..؟

fb/mashro3pdf

- حرقت..

تتحرك الدموع، فتسيل وهى ساكتة، سرعان ما ينطلق نشيجها قويًا حاراً، ذلك التحول يجعل على يمد يده ويكمم فمها، خوفًا من وصول الصوت لسمع الجالسين بالقرب من الكوخ، فيكون بمثابة إذن الدخول إلى الكوخ، وبدخولهم تزحف عيونهم إلى الحشية النائم عليها الصغار، لذلك يجد أنه لا ضرر من بذل الجهد لإسكاتها، لكنه لأنه يعرفها ويعرف أن العنف لن ينفع معها.. فيقرر أن يغادر الكوخ.. لعلها إذا لم تجد أحداً بجوارها تسكت .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٦)

تدخل دميانة على عطية بقميص نومها، وهى تعرف بالضبط ماذا تفعل....

فى اللحظة التى شاهدته يدخل إلى حجرة الخوازيق، وبيده يشير إليها يطلب منها أن تلحق به، ولدت الفكرة بنت اللحظة، لم تفكر، سألت: لم لا ؟

دخلت حجرتها، حررت رأسها من سجن الطرحة السوداء المعفرة بتراب البيت، وانحنت على صندوقها، وبيدها رفعت الغطاء، فإذا بقميص مريم يشدها، رفعته، قلبته بين يديها، وقبلته، ثم أعادته إلى مكانه، وانتصبت، وحررت الجسد من الهدوم التى تخفيه، فظهر لها الجسد الذى قارب أن يدخل فى خمسينيته،

fb/mashro3pdf

نظرت إليه، فإذا بالترهلات تنتشر بعشوائية فى أماكن كثيرة، تكون أشد تزاحما عند التقاء الفخذين، وحول الصرة، وتحت العينين إذا ما جعدت وجهها رأت فقالت السبب ليس جسدى ...

سحبت القميص المعلق على الحبل المشدود بين مسمارين، أدخلت جسدها فيه وخرجت بدون أن تلقى ولو نظرة واحدة على شعرها المهوش، بالرغم من علمها للحالة التى كان عليها، وقبل أن تدفع باب غرفة الخوازيق قالت:

سوف نرى ..

يدعك عطية عينيه، غير مصدق أنها هى دميانة التى كان يشم رائحتها- التى تميزت بها- قبل أن تدخل، فتُحرك فيه كل ساكن..

امرأة أخرى يراها غير التى كانت إذا جاءت على باله كان يترك كل ما فى يده تحت وطأة الانتصاب، ويأتى إليها ليخمد ناره..

تنتصب أمامه فى قميصها الفاقد لونه، تراقب عينيه الشاخصتين إليها، ولحيرته وسكونه، فالذى كان يدفعه إلى الفعل لا وجود له بداخله، فارقه وليس له وجود..

ربما لو تجردت لعاد

يفرح لتلك الخاطرة، يشب، ويمد يديه، يخلص جسدها من القميص القديم، وينظر إليه بلا رغبة تدفعه..

يتذكر كلامها حينما قالت:

-تحارب فىّ عدواً لا تعرفه.

ويفكر قد يكون كلامها به قدر من الصحة.. لم لا..؟

fb/mashro3pdf

يسقط على الأرض حتى يلامس جسده الأرض، فتميل عليه، تطوقه من الخلف، تحتوى ظهره، وتجهش بالبكاء.

يقول هو:

- أنت كنت على صواب.

- فقط كان لا بد أن تختبر لتعرف.

تتركه وترمى بجسدها على الحشية، وتجذبه إليها، فيدفن رأسه فى صدرها بينما عيناه ترسلان نظرات من خلف ظهرها إلى كومة الخوازيق..

- لا بد أن تحافظ على نفسك وتعمل.

لا يرد..

-نعم لا بد من العمل.. لكن كن حذراً فعدوك له ألف عين.

- وأنا معى الحق، وسوف أكون أقوى.

- وحدك لن يكتب لك النجاح.

الكلمات تجعله، يفض العناق، ويواجهها بوجه تقتله الحيرة ويقول:

- تقصدين..

- نعم أقصد ما دار فى نفسك.

-ومن بالتحديد؟

- شارك كل مجروح وهم كثر.

-نعم.. نعم. ما أكثرهم

-اليوم قبل الغد.

fb/mashro3pdf

تتركه وتخرج . . ، يبقى للحظات ، ثم يرتدى هدومه ويفارق الدار ، يسير فى الطرقات يجدف بعينيه يريد التقاط صيده الذى يثق فيه ، وجوه كثيرة لا تحرك فيه أى رغبة فى مواصلة المشى ، فيقعد على أقرب جدار متهدم يجده ، ليستريح ، ويستعيد كل الوجوه . .

قابل ناس يعرفهم ، لم يستطع طرح الموضوع عليهم ، ناس مثله ترتدى نفس العمائم الزرقاء ، لهم نفس ظروفه ، منهم من فقد أهله ومنهم من فقد ماله ، ومنهم من فقد نفسه وباعها مثل كثيرين . .

(لا بد من الحيطة ، فليس كل مجروح على استعداد للتضحية ، فالجرح إما أن يصنع رجلاً وإما أن يزيد النساء واحدة ، والناس ها هم يمضون منهم من يلتفت إلىّ ويلقى السلام ، ومنهم من يمضى وكأنى طوبة ملتصقة فى مدماك الجدار)

يقلب ويقلب فى دفتر الأسماء ، هذا ينفع . . وهذا لا . .

يشعر بالضيق ، يهم بالوقوف ، فيأتيه صوت جاد :

- إلى أين تمضى . . ؟

يراه ، فيجلس ويظهر له كنقطة متناهية الصغر من أمل وسط الأفق الغير موجود به أى بنى آدم يوحد ربه يقول له إنه هنا ، يجلس جاد بجواره على الجدار ، يلاحظ عطية أنه يوجه نظره من حين لآخر إلى الأرض المحروقة ، المنظر الظاهر يجعله يدير عينيه ، ثم يعود وينظر إليها ويقول :

- يرضيك . . ؟

يسكت عطية ، وينظر ذات اليمين وذات الشمال ، وأثناء رجوعه

fb/mashro3pdf

يسحب كمية كبيرة من الهواء، ويقول:

- يكفيك ما أنت فيه وما حدث لك.

- من قال لك؟!

- الناس يا صاحبى لا صنعة لهم إلا ترديد الحكايات، ونحن كالمش الذى يحضن دوده، وأنت كما تعلم يعدك الناس من أصحاب العقول، ومن وجهة نظرهم ما فعلته ليلة أمس يعدونه من الهفوات .

- وأنت بما تسميه..؟

- استراحة كان لا بد منها فى وقت لا يفضل فيه المشى على حبل واحد لكن أرجو ألا يكون ما حدث حلمًا من أحلام اليقظة..

- الحلم شرع للكل، ومن لا يعرف الحلم فأرضه مقفرة وستظل هكذا حتى تصيبها أى قطرات من الماء، حتى لو كانت بول عابر طرطش ماءه ومضى.

يضحك عطية ويقول كمن ينصح:

- كلماتك تساوى الكثير، فاجعلها داخلك، اكتمها قبل أن تكتم هى أنفاسك للأبد، آه لو سمعها ساكن القصر.. اشكر الله أننى أنا من سمعها..

وينظر إليه، ولما لم يقل أى شىء يمد عطية يده ويلكزه:

- قلنا اشكر الله.

يسكت جاد، ويطلق ابتسامة يحملها نوعًا ما من السخرية ويقول:

- من يكلم من؟!

fb/mashro3pdf

سؤال يقوله، ويمد يده يربت بها على كتف عطية. . .

يعانقه عطية ويرد له ضحكته بضحكة يحملها بصيصا من سعادة ويقول:

- مجروح يكلم مجروحا مثله. .

fb/mashro3pdf

(٢٧)

يتحرك- رغم العتمة الجاثمة فى البيت- كأنه يتلمس طريقه بواسطة مسراج معلق.. ويفكر الليلة خانقة يا على من شدة الحرارة هذا يبشر بليلة مقلقة ..

يخلع الجلباب، يكوره، ويميل ليضعه فى المشنة الخاوية، ومن جوارها يلتقط الفتيل المغموس فى الشحم، والحجرين، يضربهما ببعض، ويقرب الفتيل، فيشتعل، يخيل إليه أن الجدران الطينية، تتحرك لتطبق عليه.. يوقن أن ذلك من فعل الوحدة التى هو فيها لفقده صوت الصغار وكلام زهيرة الذى تحول إلى طعنات..

يريح ظهره إلى الجدار، ويسحب الجراب الذى كان فى يده مقدر علىّ أن تكونى كظلى ..

fb/mashro3pdf

ينصت إلى الفحيح المختلط بصوت الجنادب والنباح لكلاب هربت من الكلابزة سكنت الأرض البور المحروقة، ويقول:

- يكفينى هم حولى يأخذون بحسى. .وأنا هنا..

يتفقد الحجرة التى يعرف أنها لمت جسده، وجعلته يعيش بين أربعة جدران، تحافظ على خصوصيته بديلاً عن النوم فى الخلاء، وفيها ضم جسد زهيرة، وفيها انطلق صراخ الطفلين..

يمدد جسده، فتبرز له السماء صافية من فرجات السقف المجدول من البوص والجريد، فينعكس ضوء القمر على وجهه الأربعينى المبرقش بآثار جدرى قديم والناضح منه شقاء ممتد. النظرات المتطلعة تنطوى على تركيز وإعمال الفكر، تدلل عليها ابتسامة ذات طابع ساخر، يطلقها فمه، وكلمات بدأت تمشى على لسانه:

من قال لك بأنك تشبههم، فأنت واضح، صدقنى أنا لا أكذب عليك، تصنع رغبتك فى العلن، وهم يصنعون رغباتهم فى الخفاء بعيداً عن العيون، كلهم شبه بعضهم، من حولهم تنسج كل الحيل لجعلهم فى القيد يتحركون، حتى الشيخ الذى يقود صلاتهم، قال للسيد ساكن القصر:

- لكى لا تجعل الفلاحين عجائز، امنحهم أطعمتهم بالقطارة، وبذلك لا يشبعون، فإذا شبعوا تحولوا إليك، وأطاحوا بك..

هو يقيدهم وهم يقبّلون يده.. بالطبع أنا لا أفعل ذلك..

والتاريخ أمامهم، لكن من يقرأ ومن يكتب، الناس تنسى، بسهولة تنسى يا على..

fb/mashro3pdf

ينتفض لشعوره بوطأة الحر، فيقوم من رقدته هربا من الفكر الذى بدأ يتربص به، يريد أن يفسد عليه حياته..

يخرج الزمارة، يتفحص مكوناتها المتناثرة فى الجراب، يقلبها كل قطعة على حدة، يقول لنفسه زمار الحى ما عاد يطربهم ..

يعيدها إلى جرابها، يغادر مكانه، يلقى نظرة على براح الأرض المحروقة، يرى السواد الجاثم على أديمها، ينقبض قلبه، ويعود إلى الجراب، يمد يده فيه، يشعر كأنه يعبر حاجزاً مائياً.. تغيب يده، الحاجز يتضخم، كلما جدف بيده محاولاً الخروج بها، تجذبه نداهة البحر، تحيط بها، تطبق عليها، تسكنها داخل الجراب، فتسرى قشعريرة خفيفة، فيسحبها بسرعة، فتخرج وهى قابضة على قطعها..

تستوى أمامه: القصبة المنتهية بالبوق، والمطعم، والقشة.. يرفع القصبة، طلاؤها تقشر، تحول لونها- الذى كان يشبه البن المحروق- إلى لون جديد، يقول لنفسه:

شاخت كما كبرت يا على

يركب المطعم والقشة بالقصبة.. تستوى أمامه، تناوش عينيه، تغريه، تذكره بأيامها، وضمة أنفاسه تحرق جوفها، فتكتوى وتتلوى بين يديه، أسيرة لتلك الأنفاس التى لا تدعها تسكن فيها طويلاً، تفرج عنها فتتردد أصداء النغمات فى القلوب المفتوحة فتصاب أجساد الثعابين بهلوسة الرقص..

يتنهد ويضمها لصدره ويقول:

fb/mashro3pdf

عشرة عمر ..

مازالت بين يديه تعابثه، تستفزه، كما كانت تفعل أيام عزها، يرفعها، فتستوى أمام عينيه، تسرب إلى أنفه رائحة خشب الجوافة المصنوعة منه، فتهب نسائم طرية، يتخيلها بين يديه، بين شفتيه، وبعناد يستجمع قواه، يدفع بكمية كبيرة من الهواء.. فيخرج الصوت نشازاً.. تتفكك أوصاله.. يعاود المحاولة..

ينجح، يخرج صوتها قوياً، فيندفع ينفخ، وهى تطاوعه، وهو بالتدريج يسير ببطء ليصل إلى ذروة اليقظة..

يصلها الآن، فيكف عن النفخ، ويمد يده إلى حنك الجراب يفتحه، تطل الثعابين، فيوسع لها الفتحة، فتخرج.. ويعود إلى النفخ..

المشهد الآخذ فى التنامى يجعله كالمضروب بالسوط، يجاهد لكى يبقيه أكبر وقت ممكن، فليس هناك متسع ولا وقت إضافى لإعادة الكرة، هى المحاولة الأخيرة و التى لا بد لها أن تفلح وتعيد إليه نفسه الهاربة، والرافضة الانصياع لكلام زهيرة.. لذلك هو يستمر فى النفخ بدون أن يمنح نفسه أى لحظات ليلتقط أنفاسه.. مكتفيا بفعل هذا فى وقت واحد مع النفخ..

فى بداية المشهد لم يكن يهمه إلا الصوت وقوته، أما الآن فكل انتباهه مع الثعابين التى دخلت حلبة الرقص بنشاط زائد.

(هكذا تكون الحياة يا على بدون حواجز، بدون خوف.. الآن يمكنك أن تفرح بعودة الحياة التى كانت بداخلك، وبعد الآن لن

fb/mashro3pdf

يكون هناك ذلك الارتجاف الذى كان يقيدك، ويمنعك من فعل أى شيء. .حافظ على جذوتك، اجعلها دائمة الاشتعال، إياك أن تخبو.. إياك يا على.. فرصتك الأخيرة، لا تتركها تفلت من بين يديك، كم من فرص ضاعت. ؟ الكثير.. كان فى قمة ظهوره يثير الكثير من التحفز، ومع الأيام تقول لا فائدة.. إياك يا على وشعور العجز.. تعرف أن السبب هو ذلك التاريخ الذى صنعته الأيام، ولم يتدخل أحد فيه، ولم يحاول ولو محاولة صغيرة فى تغييره.. يا على اعلم أن الإنسان يصنع تاريخه.. فعليك بالنظر إلى الأمام، ودع الماضى، حتى لا يتوه منك الحاضر وتفقد الطريق إلى المستقبل..)

الصوت الآن فى أحسن حالاته، والفحيح الذى راح ينتقل من مكان إلى مكان، أصبح كصوت الغليون الذى يعلن عن حضوره. .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٨)

توقن فرحانة أن هناك أمراً ما يولد بداخله، تعرف هذا من الوجه الذى بدأ يستعيد بعض دمويته، ويستعيد الابتسامة التى لم تكتمل بعد، تلك الابتسامة التى تخدش وجهه، بعد كل مرة يأكل أو يشرب فيها، هذا أعلى ما تناله منه، والتى ما كانت لتنالها لولا ما فعله الحجام، الذى تعجب من عدم إظهاره أى بادرة تقول إنه يتألم، هى لم تعرف ماذا تقول له، لكن بسيط لخص الحكاية فى جملة واحدة حينما قال:

- الذل محجب..

جملة جعلت الرجل يضحك ويقول إن أمارات التحجيب تظهر فى القتل بالضرب بالشوم..

fb/mashro3pdf

وقبل أن يلم الرجل حاجياته، استعدادا للرحيل، قال لها إن الذل بمثابة ثمرة ناضجة، قد تحتاج إلى بعض الحجارة لتسقطها، لم تصلها رسالة الرجل، وخوفًا من تسرب الفرصة، سألته، فنظر إلى جسدها وقال:

- مارسى معه طقوس النساء.

- أى طقوس تقصد..؟

- كثرة الحديث..

وخرج الرجل بعد أن ألقى عليه الوصية الثانية:

-اجعليه على بطنه..

ها هى تقرفص بجواره، بعد أن فرغ من أكل الحريرة..

ترى أن الوقت مناسب لتبدأ بتنفيذ ما قاله الرجل، فتفض التزاوج بين شفتيها، وتقول: كأن الزمان وقف عند لحظة دخولى.. فاكر أول ليلة، يوم أن جذبتنى لصدرك، يومها توسلت إليك بكل غال أن تتركنى، نهرتنى وقلت لى إن هذا الذى تفعله يعيدنى لحياة جديدة، صرخت وسقطت دموعى على خدى، فشوه الكحل وجهى، وبختك لأنك أضعت تعب النهار الذى بذلته زهيرة فى تزويقى، ارتعشت شفتاى وقلت لك بخجل كاد أن يقتلنى:

- بتوجع.؟

- تعب يشبه وخز الإبرة.

ينبسط وجهها بابتسامة ضيقة وتقول:

-كلها جروح فى سلسلة لا تنتهى.

fb/mashro3pdf

-الجرح الذى لا يقوى يصبح بلا فائدة، والوجع يا فرحانة أول طريق الشفاء. .

تهتز أعطافها، فها هى أول الكلمات، تصرخ فيه:

- حمد الله على السلامة. .

ويسكت، فتتعلق بالوجه العائد من رحلة طالت، وتقوم تجرى إلى جوف الدار، تغير جلبابها وهى تقول لا بد من إغراقه فى نهر آخر . .

لكن كيف. .؟

السؤال يجعلها تقف ساكنة، فتعود وترتدى الجلباب القديم، مؤجلة ذلك الفعل.

وتعلن عن عودة الفرح للبيت. .

النساء والرجال حول الذل، الجالس على الحشية فى جلباب نظيف، عيناه تمران على الوجوه، يستعيد الملامح الطالة إليه، وكذلك الأسماء، ..منهم المعروف لديه ومنهم من يجهله، لكنه فى تطلعه إليهم يحافظ على نفس الوجه المطرز بابتسامة ودودة. أما نظرات المحدقين به، فقد حملت بالكثير من التعجب، الذى سرعان ما يزول تحت ضراوة نظرات فرحانة التى تعرف ما يدور فى نفوسهم، وتعرف ما يريدونه، وتعرف السؤال الذى أصبح كدودة تأكل فى لحم ألسنتهم:

- كيف حدث هذا. .؟

- كله بأمر الله .

fb/mashro3pdf

- ونعم بالله..

الذل بين عطية وعلى شوشة وبسيط.

يرفع عينيه إلى السقف ويقول:

-ياه !.. قد فسد ترابطه..

يرد على:

- لأنك أهملته.

-نعم أهملته.

ويتدخل عطية:

- كل شيء يمكن أن يعود إلى ما كان عليه.

- نعم.

يقولها ويولى وجهه إلى الفرجات، ينظر ويطيل وقت تأمله، لا أثر لأى بقع ضوئية، من أى نوع كانت، قوية أو يشوبها الوهن، بتلك الصورة يوقن أن الشمس قاربت على أن تقوم بلم غزلها لترحل، هذا المشهد وهذا الاكتشاف يجعله يحرر العينين اللاعقتين من الفرجات، ويلقى بهما على وجوه من حوله، لا يثبتهما على أحد بعينه، يبدو لهم كأنه ينظر إلى لا شيء، لكنهم- بشعور أكيد يولد داخلهم- يعرفون أن هناك مناجاة ما تبعث فيه حياة كانت قد فارقته حتى ظنوا أنها لن تعود إليه مرة أخرى، كل منهم يبذل قصارى جهده حتى لا يفسد عليه تلك اللحظات الفارقة التى تعيد تكوينه وصهره بأن يلتزم الصمت حتى لا تخرج كلمات محملة بطيش ما، فتحيل الجسد الذى راح ينتفض تحت ثقل الدموع المنهمرة

fb/mashro3pdf

من عينين تعرفان فى أى أرض يستلقى صاحبهما . . إلا أن استمرار البكاء يثير النفوس التى حوله، فيرون أن الصمت لن يجدى فى جعله يكف عن البكاء، فتمتد الأيدى تربت على جسده المبرقش بآثار كاسات الهواء ورغم ذلك لم تفتح الأفواه لتقول أى شىء . .

يئن الذل من ثقل تلك العواطف التى وصلته من تربيت الأيدى، فيريح ظهره ببطء على الجدار، ويمد ساقيه، ويعصر عينيه، ويعود ويطوق العيون، يمتص منها حبًا كان يشعر به وهو هائم على وجهه، لكنه الآن يستطيع أن يراه فى العيون التى تستجديه الكلام، يستريح لهذا الاكتشاف فيرخى عينيه، يفكر . . من أين أبدأ؟

يجد البداية بدون أن يبحر كثيراً مع الفكر، فيدير عينيه عن الوجوه ويعبر بهما الفرجات ويتخيل الوجود كيف كان فى ذلك الوقت، ويقول:

- تمامًا فى نفس الوقت.

تطوقه العيون، ويتابع:

- كان الهواء مناسبا.

- ماذا حدث . . ؟

يقول إنه فى مثل ذلك الوقت وبعد أن شاهد بعينيه كم التبن الذى طار بعيداً تاركًا الغلة مستقرة تحت قدميه، عرف أنه أتعب نفسه وحملها فوق طاقتها، فرمى بالمذراة التى تكسرت بعض مخالبها . . وعانق الشمس التى اكتسبت اللون الأرجوانى، ذلك المشهد جعله يعود بذاكرته، حدد ميعاد خروجه، فعرف كم من

fb/mashro3pdf

الوقت قضاه فى أرض الجرن، فقال:

- ياه كل هذا الوقت إنه كثير.!!

وما إن فرغ من قول تلك الجملة حتى ترامى إلى سمعه صوت يشبه الصوت الذى يصدر عن جلباب يتمزق، أدار عينيه إلى مصدر الصوت القريب منه، وجد أجساداً تخرج من باطن الأرض، تسمق، وتتشكل، لتقف على أقدام حافية، لها نفس لون التراب، أغمض عينيه وراح يدعكهما وداخله يقول له إنها تهيؤات التعب، ولما فتح عينيه وجدهم يطيلون التحديق فيه، فارتجف وكاد أن يفقد توازنه، إلا أنه تماسك، وراح يردد بعض التعاويذ وهو مغمض العينين، وبيده أخذ يشير إليهم ويقول انصرفوا . .

لكنهم لم ينصرفوا.. وبدأت أجسادهم تتفكك. شاهد البعض منها يشطر إلى نصفين من تحت الصرة، والبعض الآخر يخوزق..

قال: سبحان الله..

فسمع صوتاً يخرج من أحدهم: لا تخف

- ما حكايتكم..؟

قالوا: خرجنا من بيوتنا ولم نعد إليها منذ زمن، وأردنا أن نقول لك إنك فى نعمة، ويجب عليك المحافظة عليها، غيابنا طال، فعليك أن تزيل سبب الغياب.

وما أن سمع تلك الكلمات حتى تحولت الأجساد إلى تراب، وصرخ، لكن من يسمع، وشد شعره، فخلعه فى يده، والصراخ كان مستمراً.. والأجساد تزداد عدداً، وكأن شاطئ النهر كله أصبح

fb/mashro3pdf

مزروعًا بالبشر بدلاً من النبت الأخضر . .

راح يغلق عينيه ويفتحهما ، على أمل أن تتلاشى هذه المرئيات ، ويفقد ذلك المشهد ، النتيجة كانت خلاف ما توقع ، فقد بدأت الأجساد تدخل فى مرحلة الانتهاء للحظات ، ثم تعود وتنمو ، فيشعر بكم هائل من الهراوات تطيح برأسه ، فلا يشعر به ، تكرر المشهد ، حتى دخل فى إغماءة ، لا يعرف كم بقى فيها ، إلا أنه يعلم أنه عاد إلى البيت بمعاونة بعض الناس الذين مروا عليه فوجدوه فى تلك الحالة . .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٩)

أمنية كثيراً ما طافت فى خيالها : أن تتكلم معه وتصارحه بكل ما يعتمل فى صدرها ، كم من مرات كانت قريبة من تحقيق تلك الأمنية ، لكنها كانت تقتل الحروف التى كانت تتشكل على طرف لسانها ، بسبب الحياء الساكن فيها ، لكنها بالرغم من ذلك تدعها طليقة فى داخلها ، تتسكع كيفما تشاء ، وفى نفس الوقت تمتلك قدرة هائلة على إسكاتها وقتما أرادت ، حتى أنها ذات مرة قالت لنفسها لا أصدق أن الروح تغادر الجسد بالليل ، وبالليل فقط ، تدخل جسد قط بلا ذيل .. بلا ذيل فقط .. وتروح تسرح .. تقصد بيت الكاشف وأعوانه .. ولماذا بيت الكاشف . .؟ .. هل لأن الصغيرين لحا كماً من الوخم يسكن جسد على ملاعب الثعابين . . .

fb/mashro3pdf

وصلت لهذا الحد، وهمت بطرح الموضوع ليتم مناقشته بينها وبين على، لكنها عدلت عن تلك الفكرة. .

هى الآن تبدو متحفزة لطرح الموضوع وهى تراه يميل على جرابه وزمارته، استعداداً لخروجه. .

تسد الطريق أمامه، وتتكلم:

- اسمع يا على، كثيرون مثلك ممن شاهدوا نهايات من أحبوا، بل قد تكون أفظع مما رأيت، لكنهم واصلوا الحياة بلا خوف وأخذوا بالأسباب فالنار يا على تشفى وأنت رأيت ماذا فعلت بالذل. ...

يضحك ويقول:

-لكل واحد ظروفه وهى التى تحركه والذل كانت له ظروف هى التى أدت به إلى أن يظل ثلاث سنوات يبحث عن نفسه حتى وجدها. - وظروفك أنت ألم يحن الوقت لتَتحرك؟ يا من يقترب الخطر منك كل يوم بمقدار بعدك عنه.

بنفس الهدوء الذى رد به عليها، يقترب منها ويمد يده، يضغط على صدرها ويقول:

-آه لو أعرف ما بداخله.

-بالطبع تعرف أنه يحمل علة، حملتها منذ ولادتى، وكبرت معى، فى كل يوم يمر أرى فيها الظلم طرح الأيام السوداء يعلن عن نفسه القبيحة وأصدق ما يخبرنى به كانت الأيدى التى كانت وما زالت مغلولة، غاية ما تتمناه أكل القريللا ونشوة الفعل الإنسانى، تلك النفس ألمسها عندك أنت يا على أنت وحدك لا أحد آخر.

fb/mashro3pdf

-أعرف ما يدور فى داخلك، ولكن لا بد أن تعلمى أن بداخلى أحلامًا هى الآن فى طور النمو. .

-وإلى أن يتم هذا لا بد أن نموت بالطبع.

- ها أنت تطالبيننى بالموت

- نعم فالحياة الذليلة هى الموت بعينه.

-يا زهيرة الموت لن يكون جاهزاً لمن يطلبه، وحتى إذا ما طلبه قد يفلت منه، لأن الإنسان كما تعلمين بسبع أرواح.

-تقصد أنه مثل القطط.

- تمامًا. .

-ومن أجل ذلك تؤجل طهارة الصغيرين.

هنا يشعر بأن الحديث سوف يتجه إلى حارة سد، فيقرر الرحيل، وزهيرة من جانبها تسأله:

-إلى أين. .؟

-بيت عطية.

***

الطريق خالية من البشر، وشمس العصارى الحنون خف لهيبها ومن أمامه تمتد أرض البور المحروقة، ينظر إليها ويفكر يتجدد خفق القلب كلما نظرت إليها، يجب أن أسرع، حتى لا تستيقظ الذكريات، لأراها أمامى تطلق أنينها، يكفينى حديث زهيرة وما قالت، حاولت معها أن أقول لها بأننى بدأت رحلة زرع الخوف فى قلوب الظلمة، لكن الكلام شىء والحقيقة شىء آخر. . عين العقل ما

fb/mashro3pdf

فعلته . . . .

يقترب من بيت عطية ، يرسل نظرة يلمح الذل يضع يده فى يد بسيط ، وهما الاثنان يدخلان البيت . . يهز رأسه . . ويسرع .

تمت . .

fb/mashro3pdf

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صدر مؤخراً فى سلسلة
إبداعات

269- البر الآخر ..... محمد أبو الدهب

270- شارع ضيّق جوّه الروح ..... أشرف عبد الحى

271- الولد الذى اختفى ..... بسمة عبد العزيز

272- خربشه علي شجرة نبق ..... مدحت إمام

273- قِرَاءةٌ فِي كِتابِ النَّأْيِ ..... أشرف محمد قاسم

274- شوارع نص مفتوحه ..... سعيد عبدالمقصود

275- حلم مش لابس هدوم ..... حسن زكى

276- عندما يضحك النهر ..... عرفة محمد حسن

277- الدرامى مؤلف الحكايات ... أحمد عادل

278- مجلس القمرى ..... محمد عبد الحكم

279- كلام أخضر ..... سعيد حامد شحاتة

280- ما قدرش يكون روحه ..... محمد شاكر إبراهيم

281- بنت بتسرق روحك ..... محمد على النجار

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

رقم الإيداع: ١٠٢٢٥/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى: 978-977-704-095-2

fb/mashro3pdf